الناموس

رواية

ميلاد حلمى

القردة .. والشيكات

" الحياة هدية مبهجة "

" لا يتمتع بها إلا من يفهم قدرها "

" ومن لديه الشجاعة على أن يحياها "

مـع تقـدم الليـل تتسـاقط الكائنـات، يتأكـد مـن وحدتـه ويستنشـق عبيرهـا، يعـرف بالخبرة المتكررة أن الألم سيذيب الحواجز ، يتغلب على سطوة الزمن المسطح . يقفـز المكان الكروى، يمحـى كـل شـئ شـيء مـن وجـوده ... يصـبح حـراً ، طليقـا ، ويطيـر بخياله .

حين يخف ضغط السديم على روحه ، يطير فوق الأشجار ، يبحث عنهـا ، يبحـث عن سعادته التي حلم بها دائما ، نشوة متجددة ، فتية . متوثبة

هناك ... سيمتد معها جسداً وروحـاً، دون صـراع ، دون ألـم ، بعيـدا عـن النـدم والقلـق والتـوجس ، هنـاك ... سـيعيش حياتـه الآدميـة دون خـوف أو مواربـة، يقتـل الشعور بالذنب ويقتل التنين المقابع داخله.

وحين وجدها كانت متغيرة ، عرف ان الليلة ستكون مختلفة ، بل إنهـا قـد تكـون آخر ليلة ، ، أدرك أنها أصبحت حريته ، مصـيره ، وأن عليـه أن يـدافع عـن سـعادته ، أن يحيطها بسور عالٍ سميك ثابت من الشجاعة ، وراء السور سيقف ليقاتـل التنـين القابع في داخله ، كانت المعركة تخيفه ، لم يكن من الممكن تأجيلها ... ولـم يبـق سـوى ثلاثة ليال على ظهور النتيجة ... سيعرف كل شئ ... سيستبق الزمن .

حين وجدها كانت قد أعدت كـل أسـلحتها ، أضـواء خافتـة شـاعرية ، نيـران فـى المدفأة ، ثوب لا يبرز فيها إلا الأنوثة كاملة ، عطر جديد لم يكن يعرفه ، مائـدة عـامرة ونبيذ جيد ، ورائحة شواء جعلته يقول إنها السعادة مكتملة شاملة ... تماما كمـا حلـم بهـا دائما .

وحين هجم عليها ، وقد فقد وعيه ، أزاحته برفق وإصرار .. قالت :

- أريد أن أرقص معك .

ورآهـا تضـع أسـطوانة جديـدة ، تخرجهـا مـن غلافهـا ، علـى الجرامفـون الـذي غيرت من مكانه ، رأى عينيهـا الخضـراوين تبرقـان بحسـرة ولوعـة ، فقبضـت نفسـه توجسا .. حاول الهروب من نظراتها ، ولكنها كانت تلاحقه ، دون أن تنظر اليه .

حين دارت الأسطوانة ملأ الجو صوت مشروخ دافئ معبق بالندم ، أمسكت به واحتضنته راقصة ، دمعة دافئة تنتقل إلى خده الملصق بخدها ، كلمات مفجوعة تدهمه .....

سأتعجب طوال عمري ...

كيف تركتك ترحل ..

لم يتغير شي فى حياته .. لكن

لا أعرف إلا شيئا واحدا ، اذا

ابدا .. التقيت بك ثانية..

هذه المرة سيكون حظنا أسعد..

هذه المرة لن نقول وداعا ..

بل .. إلى اللقاء ..

إذا .. أبدا .. التقيت بك ثانية .

****

ليلتها رأى ثوبها الفضفاض يسقط على الأرض .. رأى بعينيه جسدها البض مشرب بحمرة ألسنة النيران .. شعرها الذهبي يحيط برأسها كهالة نورانية تسحره .. الأضواء الخافتة المنبعثة من الجمر كانت ترسم ظلالاً عميقة على جسدها العاجي ، يلمس بأصابعه المترددة صدق حرارتها .. يدرك لهفتها وانتظارها .. تقبلها له وشوقها إليه .. رضاها للمساته ، وهناءها لقبلاته ، واستعدادها لاستقباله .. ينظر إليها كلها ولا يصدق أنها ملكه .. يقول لنفسه إنه سيفقدها لو خسر المعركة .. يترك نفسه على سجيتها كما علمته .. يتحسس الدوائر والانبعاجات التي تسببها لمساته .. يقبض على الكتل الهلامية الشفافة الرخوة .. يتلذذ لهشاشتها ولينها وطراوتها .. يجن ويذهب عقله .. يقول لها : أحبك أحبك ... يشعر بالفطر المتصلب يملأ الأجواف ويصل إلى العظام ... يلمسها ويوجعها ، ويبتهج بسماع تلوعها .. يدهس العمق بوحشية .. يعرف أنها تحبه .. يسحق النبت الشيطاني ويلاحقه حتى يثور جبل الثلج المتراكم وينتشر ، ويملأ الكون بالفراغ ... تهتز الأرض وتخرج الصرخة الحيوانية دون حرج .. تفرغه

النشوة من ثقل الأرض ويشعر بالحياة تغادر جسده .. يرى السعادة تطفح فوق وجهها قبل أن يسبح في سموات الضياع ، لا يدرى أين هو ... يحاول أن يتذكر : من هو ؟... تمر الرعشة وتتوقف الأسطوانة فجأة .. يقول لنفسه : من غير المعقول أن تكون اللذة مباحة ، من غير المعقول أن تكون الطبيعة مُهاضة ، هكذا .. يسرى الذنب في عروقه، يعود الناموس لنهش لحمه .. يرى نفسه بوضوح في ساحة المحكمة ، كان ومازال ككل ليلة في قفص الاتهام .. العرق يبلل قميصه الأبيض ، البذلة الزرقاء التي أعادوا تفصيلها على مقاسه تسجنه داخلها ، فتلتها الصوفية نُتفت خيوطا حديدية ، سمع والده يقول مسبقا معجبا به : " هذا هو الزي ، ووالدته تقول : "هذه هي الأصول صدقهم ... كعادته .

من وراء القضبان رأى الناموس يحوم حول الجميع ، الكل يتقبله برضاء واستسلام ، عالية حبيبته تصرخ وهم يحملونها بعيدا عنه ، تعود وتقتحم القاعة بثوب العرس الأبيض والطرحة الشفافة تتدلى على رأسها ، تلقى إليه نظرة متضامنة ، تغمز بطرف عينها بشقاوة قائلة " لا يهمك ... لن أتزوج غيرك ." يطل وجه حماه الجملي بكل هدوء ، يمد لسانه الطويل يلعق عرقه طالبا المغفرة ، يسد أذنيه أمام مصمصة زوجته القردة التي قفزت من مقعد الاتهام إلى مقعد القاضي ، صرخت: "أنا النيابة ... وأنا القاضي ." ، حين اعترض الجميع ولولت وسرسعت ، تغلق فم الجمل بكفيها المُجعدين الممتلئين بالشعر الأسود الكثيف قائلة : اخرس يا خائب .. يا قليل الحيلة ." تصرخ عالية ": أحبه ... أحبه ... وأريده ." تزداد عيون القردة اتساعا، ويملأ وجهها الدهشة والاستغراب .. لا تصدق أن هذه الكلمات تخرج من فم ابنتها .. تدق صدرها بكلتا يديها صارخة ": اخرسى يا قليلة الحياء . " تدور المطابع، يرى صورته فى كل الجرائد فضيحته على كل لسان .. روحه موزعة في كل مكان .

رأى نفسه يتسلل هاربا من قاعة المحكمة ، يهرب من المدينة القذرة ، تمسك به عالية وتسأله ": الى أين أنت ذاهب يا حبيبي ؟ " يقول لها :" سأترك كل شئ ... تزوجى من ابن الوشاحي ، فأنا فقير معدوم ، بدون شقة ." تصرخ في وجهه متأكدة : "دافع عن حبك أيها الخسيس وإلا لقتلت نفسي."

سألته بنغنغة يعرفها :

- هل تحبني ؟

جاءه صوتها يعيده للحياة.

وجد نفسه مرهقا ، لم يدر كم من الوقت دامت معاركه الشبقية ، تذكر لماذا جاء ، تذكر معركته الحقيقية ، حاول جمع شتات أفكاره نعم ... لقد هرب من عالية ، وذهب الى ما وراء القطب ، يحتضن أجساد الوعول المعلقة على الأشجار فى طريقه، ويلقى بنفسه بين أفخاذ الخنازير البيضاء التي تتفتح عند قدومه .

وخيل اليه أنه نام .. معها يأتى النوم بسهولة ، بل فقط يأتي معها .. شعر بها تدفع برأسه برفق وحنية لتسندها فوق صدرها المشتعل ، سمع دقات قلبها الهائجة تعود الى الهدوء ثم تنتظم .

حين فتح عينيه رأى دمعة لؤلؤية تبرق هابطة من عينيها ، وسمع صوتها يسأله مرة أخرى وبإصرار

- هل تحبني ؟

يا لغبائه .. ها هى تسبقه مرة أخرى بالسؤال المُحرج ، وكيف يحتفظ برشده ؟ ! حالة الخمول تجعله ينسى ، بالتجربة تعلم ضرورة سرعة الرد على مثل هذه الأسئلة .. قال حائرا :

- بالطبع .. أحبك ... أحبك كثيرا ...

نظرات الشك والقلق تتابعه وتدفعه للتأكيد :

- أنتى حبى الوحيد

قليل من السخرية رآها على شفتيها وهى تقول بهدوء ضائقه :

- ولورا ... ألم تقبلها ؟
- لم يحدث ... من قال ؟ !!

أوقفته بلمسة من إصبعها العاجي على شفته قائلة بألم :

- لا داع للكذب يا حبيبي ....

- الحقيقة

قاطعته بسخرية لمست كبرياءه :

- لا أهمية لذلك ... قالت لى إن قبلتك كانت فاترة ، بدون شعور .. هل كنت تفكر في وأنت تقبلها ؟

انتقلت الصاعقة من الغابة المجاورة لتهبط فوق رأسه ، يغيب عن الوعى لحظات صوتها الحنون يسامحه :

- أعرف يا حبيبي ... لم تقاوم شفتيها .. هذه أشياء تحدث
- لن أحب غيرك
- كل شي يهون سوى العاطفة ... قل لى إنك لا تحبها ... هذا يطمئنني
- لا أحبها ... هذه هي الحقيقة ..

هزت رأسها عدة مرات تؤكد خيبتها قائلة :

- الحقيقة ... مازلت تردد هذه الكلمة يا حبيبي .

ثم قالت بائسة :

- يا لك من " بلاي بوي " فاشل .

ضمته بشدة إليها ، كأنها تريده أن يذوب داخلها ، ترك نفسه يمتد معها ، يعرف أنها تحب أن تقبله كالطفل الصغير بين ذراعيها ، تهدهده وتقبله فرحة في كل جزء من وجهه ، تضغط بهدوء ورفق على رأسه موجهة شفتيه نحو حلمة ثديها الأيسر ، ترضعه من لبنها مستحسنة وهو يمتلكها

تقول حالمة :

- أشبع يا طفلى ... اشبع ... قل لى إنك لن تتركنى أبدا ... إنك لن ترحل ، قل لى إنك ستترك الدنيا كلها من أجلى ، إنك ستعيش بقية حياتك بين أحضاني ... قل لى كل شئ يا حبيبى ، أعرف مقدما أنك كاذب ، أعرف ولكنني أريد سماعها من شفتيك .

قال صادقا :

- أنا أحبك ولا أستطيع الحياة بدونك.

ثم قالت وشئ ما يخيفها :

- وأنت أصبحت كل حياتي ... لن أتخلى عنك بهذه السهولة .
- ولكن يجب العودة .. أنت تعرفين ذلك

هزت رأسها مؤكدة ثم قالت بهدوء أخافه :

- أعرف ... سأذهب معك ... لقد فكرت كثيرا ... سأذهب معك .

سأل مصعوقا :

- الى أين ؟

ردت بعفوية طفولية :

- مصر ... بالطبع .

مصر ... ولولت القردة ، أخفت عينيها الواسعتين ، لا تريد أن تراها : شدت شعرها صارخة وسط الشارع ، عُزف السلام الجمهوري ، غنت شادية بحنو ودفء : "يا حبيبتي يا مصر ... يا حبيبتى يا مصر . " رأى نفسه يخطف عالية ويهرب من ساحة المحكمة الدائمة الانعقاد ، يوجهون البنادق نحوهما ويصرخان في وقت واحد : "اقتلونا ... لن نعيش وسط جهلاء متخلفين ." ورأى القردة تذبح الجمل بسكين طويل حاد ويعلو وجهها علامات الرضا والتشفى ، وسمع والده يصيح : والشقة تتدبر ، ابننا سيصبح أستاذا جامعيا ،" ترد عليه القردة مُهلوسة :" بلا خيبة "...يصرخ الأب محاولاً إسكاتها : " زوجك مدرس ، أبناك الاثنان مدرسان ." ضربت القردة صدرها مصمصت بين كل كلمة والأخرى ضاربة كفا بكف قائلة ، بلا نيلة لا مرتبات ولا دروس خصوصية . " ثم أظهرت عجيزتها الحمراء للجميع قائلة " قال دكتوراه قال ... احنا ناقصين فقر ؟ !

قالت تشده اليها :

- ستصبح أستاذا عظيما .

استاذ ...يدفن وجهه بين نهديها ، يذوب في شحومها ، يريح رأسه على بطنها الملتهب ، هى فى مصر !!! أي جنون ... تسير معه في شوارع القاهرة ؟ تركب معه الأتوبيس ؟ تنحشر معه وسط المعذبين ؟ سيلقون بأنفسهم فوقها ، ستتقاتل الأيدى للمس مؤخرتها الدائمة السخونة ، سيتوقف الأتوبيس وهى تقدم لحمها الأبيض قربانا للمحرومين والجائعين ، سيصرخ محتجا ، يقيدونه واقفا ويهبطون من سرواله ، يفعلون به ما يفعلون بها ، ضحكات وحشرجات حيوانية تملأ الأتوبيس وتنتشر في سماء المدينة

قال لها مرعوبا :

- الحياة في القاهرة صعبة ... أقصد مستحيلة .

ردت بغضب حقيقى :

- كف عن معاملتى كطفلة صغيرة ، أنت تعرف أنني عشت في الأدغال الأفريقية ، سنتان من عمرى وهبتهما لمعالجة المرضى وتعليمهم .

قال لنفسه :" وأين الأدغال من القاهرة ! "

ثم قال لها دون أن يدرى :

- القاهرة مليئة بالوحوش الجائعة .
- سأكون معك .... دائما بجانبك
- وعملك ؟

قالت بعيون حالمة :

- سأترك كل شئ من أجلك يا حبيبي
- وأهلك ... ماذا سيقولون ؟ !

ضحكت وهى تنظر إليه بعينيها اللامعتين ، ابتعدت عنه قليلا حتى تراه ، قالت ساخرة :

- ما بالك يا حبيبى تسأل أسئلة بلهاء ؟ أهلى غير مسئولين عن تصرفاتي ، لقد تعديت الثالثة والعشرين

قال بأصرار كأنه يفهم :

- لكن الناس لا يعيشون هكذا في مصر
- وكيف يعيشون إذن يا حبيبي ؟
- أقصد بدون زواج

قالت فرحة :

- ولماذا لا نتزوج ؟ نتزوج هنا ونذهب معاً الى مصر

سكت ... كيف يقول لها ؟ ! وكيف يتزوجها ؟ قال فجأة يتذكر :

- ولكنك ضد الزواج ... ألم تقولى إنه ضد الطبيعة البشرية ؟ !
- نعم يا حبيبي ... لكن في سبيل الحياة معك سأفعل أي شئ ، سأتزوجك .

ضحك في سره ، رحل مع الموكب الذى خرج باتجاه بيت الحبيبة ، ظن أنه تحصن بالشهادة والمركز واللقب الجامعى ، فوجئ بالقردة تقول بسخرية : " يعنى ... بلا مؤاخذة ... يعنى ده بيكسب كام ؟ " انطلقت الأصوات تدافع" : حالة الكسب مستقبلية زاهرة . " سمع والده يتحدث عن الشباب والصعوبات التى تواجههم ، ثم سمعه يقول : " لا تنسوا الحب يا جماعة ....

هذا هو أهم شئ فى الموضوع، بل هو الموضوع نفسه ، عادل يحب عالية ، وعالية تحب عادل ." صعقت القردة عند سماع موضوع الحب ، مصمصت .. شدت شفتها السفلى شبرا للأمام قائلة : "عشنا وشفنا ... قال بتحبه قال !! " سمعها تصرخ في وجه ابنتها : " يا مفعوصة ... حد يرفض ابن الوشاحى الغنى من أجل خاطر حتة أستاذ ؟ " تهرب عالية من امامها ، يتصدى الجمل لزوجته بأدب : " الأساتذة فخر مصر ومربيين الأجيال ، أتق الله ... يشرفنا أن نناسب أستاذا جامعيا ."

رأى القردة تشوح بيدها اليمنى ، تضع اليسرى على صدرها قاسمة :

" لا زواج بدون شقة . "

تضاءل ، تقلصت أمعائه ، بقى فمه مطبقا أمـام الكلمـة ، أخـرج جيـوب سـرواله البيضاء الفارغة ، راتبه يضيع فى المواصلات وشقق الفول والطعمية ، حتـى ملابسـه أعُيد تفصيلها على مقاسه ، قال والـده إن عـم سـلامة التـرزى يصـنع المعجـزات ، إنـه ملك الرفاية ، الترقيع في ظهر الجاكت لا يستطيع مخلوق رؤيته بالعين المجـردة ، قبـل الرحيل سمعه يقول :" إنها علـى مقاسـك ." وسـمع أمـه تقـول : " مسـتوردة . " لكـن القردة قالت " شقة" .

قالت منغنغة :

- ها أنت قد ذهبت مرة أخرى يا حبيبي ... فيم تفكر ؟

سكت . يريد أن ينفجر بالضحك أو بالبكاء . قالت :

- اسمع ... سنتزوج فـى مصـر ، سيسـافر أبـى وزوجتـه ، وأمـي وزوجهـا معنـا ... ستكون رحلة العمر

ضحك . حاول أن يخفى سخريته ولكنها لمحتها ، قالت عاتبه :

- لماذا تضحك كلما كلمتك عن عائلتي ؟ ألا يحدث زواج وطلاق في .مصر ؟ !
- ليست هذه المشكلة
- أين المشكلة إذن ؟ !ألا تحبني ؟

يحبها ؟ ومتى كـان الحـب طريقـا للـزواج ؟ وكيـف يتزوجهـا وهـي تعـرف أنهـا ستعيش معه سنوات ثم ستمله قبل أن تكرهه ، وكيف يتزوجهـا وهـو متـزوج ؟ ! أحـب أن ينهى كل شئ بشجاعة ويقـول لهـا : " زواجنـا مسـتحيل ... مسـتحيل ." لكنـه قـال بخسة :

- -أحبك ... بالطبع أحبك ... ليتنا نتزوج

قالت متشجعة :

- سنوات طويلة وانا أنتظرك ، صـورتك فـي مخيلتـي منـذ الطفولـة ، حتـى العرافـة تنبأت بأننى سأتزوج مـن أميـر شـرقى لوحـت الشـمس جبهتـه وتشـبع جلـده بملـح الصحراء و ... و

قالت كلاما كثيرا ، كان يستمع اليها ونفسه تقول لـه : " أي نـوع مـن الإنتظـار أيتها الشقية ؟ ! إنتظار عجيب تمرغت فيه فـي أحضـان الكثيـرين " كـان يـود أن يجـد الشجاعة ليقول لها : " وعشاقك السابقون ؛ وصورهم، ذكرياتك معهم لا تخجلـين مـن إلقائها في وجهي ، وتعليقاتك الخالية من الحياء على كل منهم مازالت تـرن فـى أذنـى ، صـورتك العاريـة علـى الشـاطئ نهبـة للعيـون، جسـدك المـذبوح فـي يـد أحـدهم ، أى انتظار ؟ !! أى حب كان لهم ، وماذا تبقى لي ؟ لكنه قال:

- حقا ... أنت تؤمنين بالعرافات والغيب !!
- إنها خرافات يا حبيبي ... لكن من يدرى ؟ قد تكون حقائق !!
- كيف ترفضين الأديان السماوية وتؤمنين بالخرافات ؟
- لا تغضب يا حبيبي ... أؤمن فقط بحبك ، قالت ذلك العرافات أم لم تقلـن ، جسـدى، عقلى وروحى يدفعوننى للتمسك بك ، كل ذرات كيـاني تتوجـه نحـوك ، هـل تفهـم معنى ذلك ؟

إنه الحب ... الحب الحقيقى

قال لنفسه :" الحب ... إنها تحبه ... هو يشعر بذلك في كـل خلجاتهـا ونبضـاتها . ولكن ... كيف ؟ !!

سمعها تقول :

- سنكون زوجين مثاليين ... ستكون السعادة عشنا

زوجين ... مثاليين ... سيخرج عليهم بالملاءة البيضاء وقد لوثـت طهارتهـا البقـع الحمراء ، ستكون البقـع مـن دم التنـين الـذي سيصـرعه ، لكـن ... لـن يصـدقه أحـد .. سيهمسون فيما بيـنهم " أمريكيـة عـذراء ؟ .... هـل هـذا ممكـن ؟ " سـتقود أمـه الحملـة لإرضاخ الجميـع ، سـيأخذه مصـطفى الشـيمى جانبـا ويسـأله : " بينـي وبينـك ... هـل كانت عذراء ؟ " سيصرخ في وجه الجميع قائلا لهم ولنفسه :" نعم ... كانت عذراء

الروح ، مستنزفة الجسد . "

قالت بصدق :

-أنت حبى الأول ، لم أحب أحدا من قبلك .

قال لنفسه : "حقا ... نحن ننتمى الى عالمين مختلفين .." .

ثم قال لنفسه ولها :

- وأنتي حبى الوحيد .

ثم قال لنفسه متعجبا غير فاهم ما يحدث له :" ما أغرب الإنسان .... نعيش على نفس الكرة الأرضية ونختلف في كل شئ .! ".

وخاف أن يكون صادقا ، فكر في عالية ، استدعى طيفها لتدافع عن حبها ، أين هى لتقول له إنه لا يحب هذه الشقراء ولكنه فقط تعود عليها ، وإنه سرعان ما ينساها، وأن ما يحدث له هو شئ عابر ، وأن الحب الحقيقى الأبدى هو لها ، هى التى تنتظره من سنوات رغم العبودية التى تربت عليها ، رغم لبن الخنوع والمذلة والجهل الذي تجرعته منذ الصغر .. لكنه كان وحده ، هو .. وهى ... والتمزق والضياع ...

قال ببلاهة حائرا:

لكنني لا أملك أي شئ

ردت باستنكار :

- وما دخل المال ؟ المال لا يعنى أى شئ .. ألا تفهم أننى أحبك ، ألا تدرك أننى معجبة بك ، فخورة بذكائك ، مغرمة بجسدك ، مفتونة بشخصيتك ؟ !

قال ببلاهة أكثر :

- راتبي لن يكفى إيجار مسكن

صاحت مستنكرة :

- عجبا ... بحق السماء ... المشاكل المادية نستطيع حلها ، المهم هو الحب ، الحب ... هل تفهم ؟ أن تلتقى أفكارنا ، أن ننعم بحياتنا ، أن يلتحم جسدانا فى تلاؤم ويصعدان معا لقمة النشوة .. هذا لا يحدث إلا في حالات نادرة .. ماذا تساوى الملايين أمام سعادة كهذه ؟! معك يا حبيبي ... معك أجد نفسي

سكت .. قال لنفسه : " كلما ظننت أننى فهمت هذه المخلوقة أدركت اننى لم أفهم شيئا ." كان يخاف أن تكون على حق ، شعر أن عليه أن يقاوم ، أن هناك شيئا ما لم يفهمه وهى تستغل جهله .. قال بعناء أكثر :- تقولين ذلك لأن أسرتك تساعدك ماديا

صرخت بدهشة صادقة مستنكرة :

- كيف تقول ذلك ؟ تعرف أننى بدأت أعمل منذ السابعة عشرة من عمرى ، لا أريد مساعدة من أحد ، لاطعم للنجاح بنقود الآخرين .

ولكنه يعرف ، ولا يدرى لماذا قال لها ذلك ، ولا يدرى لماذا لا يريد أن يعترف لنفسه بأنه أمام مخلوقة حرة أبية ، وأنها استطاعت أن تفعل أفضل منه .. قال لها مضطراً

المجتمع هنا يتيح لك كل هذا .. هنا كل شئ سهل

قالت بائسة :

- لا فائدة ... لا تريد الاعتراف بجهدى وتعبى

ولاحت له الحقيقة . أهو يغار منها ؟ أيغار من كبريائها وتمسكها بحريتها ؟ يتأمل عينيها الساحرتين وفيهما شئ غريب يجذبه كلما نظر ، يحاول فك طلسم البريق الذى لا يخفت لحظة ، البريق الذي لا يكف عن التهام الحياة وتذوقها بنزق ولذة، بريق يتلقف كل إشارة منه لينفعل معها ويتجاوب ، وتلك الحمرة الداكنة فى منابت الشعر وخلف الأذن ، متى سيفهم ما يدور داخل هذا الرأس الجميل الذى طالما حيره وأعياه ؟ !كيف تستطيع الجمع بين كل هذه القوة والضعف ، كل هذا الكبرياء والشهوانية ، كل هذا الذكاء والفطرة ، كيف تستطيع التحول من امرأة متحضرة إلى كائن بدائى فى لمسة واحدة ؟ !كيف تحوله بين ذراعيها من رجلها الى صغيرها ؟ هل هو أمام امرأة واحدة أم هي عدة مخلوقات تجتمع في جسد واحد ؟ !!

سمعها تقول وشوقها إليه يعود من جديد :

- هل أحبك أحد من قبل مثلما أحبك ؟

قال حائرا :

- فى مصر نحب بطريقة مختلفة .
- وكيف تحبون في مصر يا حبيبي

كيف ... فكر ، قال :

- الحب هو الزواج .... المرأة لا تعطى نفسها قبل الزواج
- وماذا يفعلان إن لم يتفقا في الفراش" ؟
- في مصر... هناك لا نتحدث في هذه الأمور .
- وعماذا تتحدثون إذن ؟ !
- كل شئ عدا هذا ، الجنس من المحرمات
- الجنس من المحرمات !! لكن الحياة بدون حب هي صحراء جرداء !
- هذا فى مجتمع الوفرة ، عندنا المشاكل الاقتصادية تقتل كل شئ خاصة المشاعر الانسانية

قالت غاضبة:

- لكن الإنسان هو الإنسان فى كل مكان ، أنت لا تتكلم إلا عن المادة يا حبيبي ، كنت أعتقد أنك القادم من الشرق ستأخذني لنحلق في سموات بعيدة ، وها أنت لا تهتم إلا بصغائر الأشياء

ثم سمعها تقول:

الانسان لا يحتاج الا لأبسط الضروريات حتى يعيش حياته سعيدا

ضحك في سره ، ماذا تعرف هى عن مستهلكي الحضارة ؟ !عن الشقة ذات الثلاث حجرات وصالة ، عن حجرة المائدة التي تتسع للعائلة مجتمعة ، عن الحمام والبانيو الإيطالي ، عن القيشاني والسخان الكهربائي ، عن الخشب الدمياطى ، عن المطبخ المودرن الزينوكس والأفران النصف كهربائية والمشاعل المتعددة الأغراض والقنوات والتي يخرج من بعضها غاز أبيض ثلجى ، عن جلاية الصحون والثلاجة الأمريكية العملاقة ، عن المكانس الكهربائية التي تعمل على السجاد والموكيت والبلاط ، تضخ المياه وتشفطها ، تسحب الأتربة وتبتلعها وتنفخ الهواء بقوة خراطيم المطافئ ، ومُحضرة الطعام التي تسحق الجزر وتدهس البطاطس ، تقشر الكوسة

والبصل وتفصص الثوم ، وهل تعرف أنه وجد شجاعته وصرخ في وجه القردة يائساً وقال :" لكن مرتبى الضئيل ... " لكنها لم تستمع .. فتحت النوافذ وجمعت الجيران .. قفزت على المائدة صارخة في وجه الجمل : جاءك كلامى ... الأستاذ مفلس دقت المائدة بقدمها ، ضربت على صدرها بقبضتها ، سمع الجمل يطالب بالصبر والاعتدال ، سمع عالية تحاول الكلام " يا ماما ... " لكنها صرخت في وجهها : " اخرسى يا مقصوفة الرقبة ." وماذا تعرف عن المناقشات والمناورات ، عن الموائد المستديرة والمضلعة والمستطيلة ، عن بنود العقد التي قتلوها بحثا ، عن الليالي الطويلة للاتفاق على أدوات المطبخ ، عن فشل جميع المحاولات لاحلال الالمونيوم محل النحاس ، والاختلاف على من تقع مسئولية النحاس الثقيلة ، وكيف أنه تحول من الحبيب الى العدو ، من الشاب المهذب الى الوحش الكاسر الذي يريد التهام ابنتهم ، وكيف اتسعت عينى القردة قائلة : ، طبعا ... لا بد من تأمين ابنتنا . " وكيف قالت : ، بناتنا لا تُلقى فى الشوارع ." وكيف برقت العينان واحتلتا كل الوجه وهى تقول :" يكتب لنا شيكات . " قالت

تسترده وتحاول اصطياد نظراته التائهة :

- ها أنت قد ذهبت مرة أخرى بعيدا ، فيم تفكر يا حبيبي ؟ دعنى أشاركك أفكارك
- أنا معك ... أنا معك .
- جسدك يلتصق بجسدى وأنت على بعد أميال منى ، متى ستجعلنى شريكتك في كل شئ ؟ أريد معرفة ما يدور بخلدك
- هل تريدين حقا أن تعرفى ؟ !
- بالطبع ... الحب هو المشاركة ... أليس كذلك ؟

قال متعبا :

- حسنا ... كنت أفكر فى القردة
- ما لها القردة يا حبيبي ؟.
- طلبت مني أن أكتب شيكات ..
- قص على حكاية القردة والشيكات يا حبيبى.
- لا داعي ... لن تصدقي منها شيئا ، ستقولين إننى أخرف.

- بل أريد معرفة كل شئ ... هيا .. قص .. احك
- لا ... إنها أغرب من الخيال .
- لكن هذا ما سيجعلها طريفة وتستحق السرد
- لكنها الحقيقة ... هذا ما حدث في الواقع
- أين يا حبيبي ؟
- على النيل ... طلبت منى القردة أن أكتب لهم شيكات

ولم يقل :" كان هذا شرطها لكتب الكتاب "

ولم يقل :" كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذها من براثن ابن الوشاحي ."

بل قال غير مدرك بما يقول :

- هذه عادة جديدة تتبعها العائلات .
- ما أكثر عاداتكم يا حبيبي

ثم قالت مستدركة

- بالطبع هي مخطئة ... قل كل شئ ... كلى آذان صاغية ..

ولما رفض أجهشت بالبكاء قائلة بغضب :

- أى نوع من المخلوقات أنت ؟ أعرف أنك تخفى عنى سرا ، إنك تبتعد عنى وترفضني ، أحيانا يخيل إلىّ أننى مجرد شئ تستمتع به ، وتريد ألا تراه بعد انتهاء متعتك ، لماذا تغلق على قلبك ؟ أنا التي أحببتك وبنيت كل سعادتي عليك .. تكلم ... قل أى شئ ، قل إنك لا تحبني ، قل إنك تكرهني ، إنك مللتني وتريد أخرى ، قل ...

وأجهشت باكية مرة أخرى صادقة في نكبتها وفجيعتها .

ارتمى على ظهره ناظرا للسقف ، أشعل سيجارة محاولا تهدئة نفسه ، كان يبحث عن شجاعته ليقول لها الحقيقة .. سمعها تقول :

- هذا غير معقول ... أربع سنوات أحاول إقناعك بالكلام وأنت كالجدار الأصم ، أربع سنوات أحاول فهمك وأنت كاللغز ، تقول إنك تحبني وأنا أشعر بحبك ولا

تريد أن أشاركك حياتك ، قل لى يا حبيبي ... هل تحب أخرى ؟ هل أنت مرتبط هناك بامرأة ؟ هل هو الماضي يجذبك ويبعدك عنى ؟ تكلم ... قل لى أى شئ

كان لديه الكثير يود أن يلقيه فى وجهها ، كيف تريد الزواج وهي مقتنعة أن رحلة الحياة الطويلة تحتاج لشركاء مختلفين ؟ كيف وهي التي شجعت أمها على الطلاق من أبيها ، وترى ذلك أمرا عاديا ليكفا عن الشجار

وحين سألها عن ذلك قالت إن الشجار يعنى أنهما لم يتفقا في الفراش أو أنهما لم يتفقا أبدا وكيف تطلب منه ترديد كلام الحب الأبدى ؟ هى التى تعشق التغيير وتعادى الرتابة والتكرار، وتكره كل ما يدوم وتسخط على كل ما يبقى ؟ !

لكنه قال :

- لدى رسالة ... لا بد من رد الدين ..
- لكننى أفهم ذلك ، لم أعد أطلب منك البقاء ، أفهم شعورك نحو بلدك ومشاكلها ، أريدك أن تعود ولكنني أود أن أكون بجانبك.
- هذا صعب ... بل مستحيل
- لكن أستاذك الجوهرى متزوج من أمريكية ، ومستر " رايت " يشجعني على السفر معك ، بل إنه سيجد لى عملا هناك .

اثارته سيرة " رايت " وهاج صارخا :

- وما دخل هذا اللعين فى الأمر ؟
- لا تغضب ... إنه يريد سعادتنا .
- ليس له الحق في التدخل في أمورى الشخصية.
- ليس لهذا أهمية ... لماذا ترفض السعادة ؟ ... لماذا ؟

قال وقد وجد بعض الشجاعة:

- أخاف أن يتبخر حبك إذا أصبحنا زوجين ، أن تقتل العادة والرتابة سحر علاقتنا القائمة على الحرية الكاملة ، أنت لا تقبلين التفريط في حريتك ... أليس كذلك ؟ الروتين هو قاتل الحب ... أليست هذه كلماتك ؟ !
- ولكنى أصبحت عبدة حبك ، بعيدا عنك ساكون شقية تعيسة .

- ولكنك تعرفين أن شعورك هذا سيتغير ، أنت قلت ذلك .
- سأكون كاذبة لو قلت عكس ذلك ، لكن السعادة نأخذها متى تأتى نعيش بها مكتملين .. وحين تنتهى يصبح من الأفضل الانفصال والاحتفاظ بأجمل الذكريات على إفساد كل شئ والاستسلام لنكد الحياة
- هذا ما يخيفني ... أنت تحبين التغيير .
- بالطبع ... سترى كيف سأكون كل ليلة امرأة مختلفة ، هكذا أحب الحياة ، هكذا تكون الحياة الحقة ... وأنت تحب ذلك أيضا
- لكن الزواج عندنا كخط السكك الحديدية .. طويل ، كئيب ، متواز ، لا يتغير أبدا حتى يصل الى النهاية .
- لدى القدرة على حبك طوال عمري .
- ولكنك غير واثقة

قالت بصبر وحيرة :

- عجبا ... أنت تريد مني أن أضمن شعورى نحوك بعد سنوات ، وأنت هل تضمن شعورك العام القادم ؟ لا أحد يستطيع التحكم في شعوره ، قد تكرهني ، قد تحبنى أكثر ، هذا يتوقف على عمق حبنا .
- لكن المشاكل هناك تقتل أى حب.
- لا ... ليس من حقك أن ترفض السعادة ... هذا هو الجنون ، أعرف أنك خائف من شئ ما ولكنني أعرف أنك تحبنى بصدق ، وأنا كذلك أحبك .. من الظلم أن تتركنى .. خذني معك يا حبيبي ....

رآها تهبط معه سلم الطائرة ، نظارة سوداء على وجهها الأبيض ، شعرها الذهبي يطير فى الهواء ، تمسك بباقة زهور قدمتها لها أمها قبل سفرها مع قبلة طبعتها على خدها قائلة : "كوني سعيدة " ، ورأها تمسك بيده وهى هابطة ، تطير من السعادة .. من بعيد رأى عالية تشهق ثم تسقط فاقدة الوعى ، القردة تلقى بها بين يدى زوجها متأففة ، وعلامات الفرح والانتصار تبدو على وجهها وهي تقول، " جاءك كلامى ... جاءك كلامي ... ضيعت مستقبل ابنتك ."

قال بحزم فجأة :

- مستحيل ... مستحيل ... يجب أن أذهب بمفردى

وإستدرك بعد لحظة :

- أسمعى ... سأعد لك مكاناً وستأتى بعدى .
- لا ... أريد الذهاب معك ، نستطيع الاقامة في فندق .
- هذا مستحيل ... سيطلبون منا أوراق الزواج الرسمية.
- بل أنت لا تريد أن أذهب معك ، تريد التخلص منى ... اعترف

وانهارت دموعها وهي تجلس القرفصاء عارية أمامه ، رأها تنحب بطريقة أثارت عطفه ، فحاول أن يضمها اليه ورغبته فيها تزداد كلما بكت .. أزاحته برفق قائلة وسط دموعها :

- وماذا سأفعل بدونك ؟ هل فكرت فى الليالي الطويلة التي سأقضيها وحدى ؟ وكيف سأنام ورأسى قد اعتادت على كتفك واتخذت منه وسادتها ؟ ! هل ترانى الآن أتناول عشائى وحيدة حزينة ؟ أستيقظ في الصباح ولا أجدك بجوارى !!! هل فكرت فى كل ذلك ؟ وماذا سأفعل في عطلة نهاية الأسبوع ؟ أنت تعرف أننى أخاف عندما أكون وحدى . لا ... قل لى إنك لن تتركنى وتذهب ، قل لى إنك ستأخذني معك ، لقد وعدتني بزيارة مصر ، أليس كذلك ، ألم يحن الوقت ؟ ! دعنى أذهب معك ... سترى.

وعندما أدركت أنها تهين نفسها أمام صمته كفت عن البكاء فجأة ، وقالت : أسفة ... أنا حقا آسفة ... كنت قد صممت ألا أضعف أمامك

ضحكت وسط دموعها قائلة :

- ها أنت ترى كم أنا ضعيفة ،

ثم قالت وهى تنظر بعيدا وتمسح دموعها:

- أعرف أنك ستذهب وتحاول أن تنساني

وسمعها تقول بمرارة :

- مستر " رايت " على حق ؛ قال إن العرب يتمتعون بالمرأة الغربية ويهربون كالجبناء

صمت ... تابعت هي :

- أنت تثبت أنه على حق .. قال إنهم لا يستطيعون مواجهة المرأة ولا يطمئنون إلا للمرأة الجاهلة الساذجة .

أمام صمته عادت دموعها للانهمار ، تشجعت وقالت :

- ألا تستطيع الفهم ؟ هل تدرك مدى ما تفعله بي ؟ هل تريد العودة للزواج من فتاة عذراء جاهلة ، تنجب لك أطفالاً سذج لا يعرفون شيئا عن الحياة ؟ أنت نفسك عانيت سنوات للتكيف مع المجتمع الحديث ، أنت قاسيت للتخلص من أخطاء تربيتك الساذجة ، كيف ستقبل الحياة مع زوجة متأخرة وقد وصلت لقمة العلم ؟ وهل حقا تظن أن هناك إمرأة عذراء ؟ !

قال كاذبا مرتبكا :

- لكنني لا أفكر فى الزواج الآن ... لدى ما يكفينى من المشاكل .

تابعت باكية:

- أعرف أنك لا تريد الزواج منى لاننى لم أكن عذراء ... أعرف ذلك ..

رد كاذبا :

- لكن هذا الأمر لا يهمني
- مستر " رايت " قال عكس ذلك ... قال إن العربي لا يفكر إلا في ذلك ...

قال إنهم لا يعتبرون المرأة إلا أداة للمتعة ، ويسمونها " عاهرة " أو زوجة تنجب الأطفال .

غضب قائلا :

- لماذا تصدقين كل ما يقوله هذا الملعون ؟
- لأنها الحقيقة ... أنت تتصرف معى كما تتصرف مع عاهرة
- الأمر واضح ... أنت لا تستطيع أن تحبنى
- لكنني أحترمك وأعجب بك ... أنت تعرفين ذلك ... أنا أحبك .

- هذا أسوأ ... لو كنت تحبني حقا لما تركتني .
- وأنت ... لو تحبينني حقا لتفهمت موقفى ومشاكلى.
- مشكلتك إنك لا تستطيع إتخاذ قرار.
- الأمر في غاية الصعوبة والتعقيد .
- بل أنت تتهرب ... تتهرب من تحمل مسئولية حبك.. .. تهرب من سعادتك

ثم قالت متعبة :

- مستر " رايت " قال إنك غير قادر على اتخاذ قرارات ..
- قال ثائراً دون أن يسيطر على نفسه :
- هذه آخر مرة تحدثيني فيها عن هذا اللعين ... لا أريد أن أسمع اسمه

...لا يهمنى ماذا يقول ... هل فهمت ... لا يهمنى ...

- لا شئ يهم يا حبيبى سوى الحب ... لا داعى للغضب ... هذه آخر مرة أحدثك فى أى شئ ... إنني متعبة ... مرهقة ... ضائعة ...

وانخرطت في البكاء مبعدة وجهها عنه ،

كان يود أن يجهش بالبكاء هو الآخر ، أن يضرب برأسه في الحائط ، أن يقتل نفسه تخلصا من جبنه ، ولكنه لم يجد الدموع ، رفضت أن تطاوعه ، شعر بها تتراكم على قلبه ، تتجمع في سيل جارف يأخذه إلى نهر ثائر هدار يصب في بحر هائج ، رأى الأمواج تبتلعه وتسلمه إلى الحيتان الضخمة التي تلتهمه وتنهش لحمه .. رأها في قارب تحاول أن تنقذه .. تمد له يدها وهو يرفض مساعدتها حائرا متكبرا .

وسمعها تقول قبل أن يتملكها النوم :

- سأحلم بك تأخذني إلى الأهرامات .

ورأى يدها العاجية تمتد مرة أخرى لتضع الإبرة على نفس الاسطوانة ، وسمع الصوت الدافئ المشروخ يعود يغني دون تعب أو كلل أو ملل

سأتعجب طوال عمري
كيف تركتك ترحل ....

وسمع صوتها يطلب منه بيأس :

- ستكتب لى كل يوم خطابا ... أليس كذلك ...

فرد وهو يؤكد لها كاذبا :

- نعم ... ساكتب لك كل يوم خطابا .....

***

في غبش الفجر ظل يتأملها نائمة كالملاك المستسلم الوديع ، خيل إليه أن دموعها تهبط وهى نائمة ، ورأها تبتسم فشك أنها تحلم به يأخذها الى الأهرامات

كان متعبا ، مصرعا ، ممزقا بين عوالم معقدة متشابكة ، يعصى عليه تفهمها والتعامل معها ولا يملك تجاهلها

قال لنفسه : " متى سأفهم نفسى ؟

وصوت تردد داخله : " رايت " على حق " ... " اللعين معه حق" ..

وعرف أنه خسر المعركة ..

عرف أن التنين قد انتصر ..

وأن الألم سيسكته

حين كف عن النظر إليها ، تنبه أن المطر مازال ينقر زجاج النافذة برتابة ومثابرة .. سمع أصوات رعد تتفجر فى السماء .. رأى خيوطا وأسواطا كهربائية تلهب ظهر السحب وتملكه الخوف ..

غدا سيكون في الطائرة محلقاً في السماء .

رأى نفسه يبحث كالمحموم عن سجادة الصلاة التى يجيد تخبئتها حتى لا تلمسها، حين وجدها لم يقو هو نفسه على لمسها.

في الحمام راح يدعك أسنانه بقوة ونشاط غريبين ، ملأ الفرشاة بكمية كبيرة من معجون أبيض تفوح منه رائحة النعناع القوية وملئ بالفلورين للتخلص من مرارة النبيذ فى فمه .. وتحت الدش راحت الليفة الأسفنجية المليئة برغوة الصابون تحك كل جزء من جسده ، خيل إليه أنه أزال الطبقة الأولى من جلده .. ظن أنه تخلص من آثار قبلاتها .. وأنه أصبح نظيفا ، نقيا ، طاهرا

بعدها وقف أمام الحوض يتوضأ فى خشوع .

جاهد وهو يخطو للحجرة ألا ينظر اليها ، أن يتجاهل وجودها .

في أبعد ركن عن السرير فرش سجادته على الأرض .

حين وقف فوقها خيل إليه أنه انفصل عن العالم

وركع يصلى

حين انتهى من صلاته جاءه صوت والده من الخلف متعجبا :

- لماذا لم تنتظر يا عادل حتى نصلى الفجر حاضرا ؟ !!

هنا ... الحياة

" الإنسان ذو البعد الواحد غريب ...
لأنه بلا استطالات ولا عمق . "

" ماركيوز "

على أرض حمراء قرمزية دموية وجد نفسه يقاتل " رايت" ..كان لا بد أن يهزمه قبل أن يسافر ، لا يستطيع البقاء على هزيمة ، يهزمه ولو لمرة واحدة، مرة واحدة يثبت فيها أنه قادر ، قادر على اللعب ، وأنه يستطيع التفوق عليه ولو لمرة .

ظل يهيم فى كلماتها ، يستعيد لمساتها وخلجاتها ، يمسك بالمضرب ويحاول اللحاق بالكرة البيضاء الشفافة التي يرسلها له اللعين بكل قوة ، تطير الكرة أمامه .. تحته وفوقه .. تخترق جسده دون أن يستطيع الإمساك بها وردها .. يختل توازنه .. يقع على الأرض .. تزوغ عيناه بحثا عنها .. يعرف أنها موجودة ، كالوقت ، كالعدم ، ولا يستطيع ردها ، كان لا بد من اللعب ، لا بد من هزيمته ، ولو ... لمرة..

يشعر بالمضرب ينخر باطن يده، الألم يزداد ، والجلد يضعف كلما احتك بقبضة المضرب .. يلوم نفسه مرة أخرى .. سيصيح به : " لماذا لا تمسك المضرب كما علمتك ؟ "...ولماذا لا يمسكه كما علمه ؟

ولكنه يمسكه كما يشاء ، كما يعجبه ، كما يحلو له ، يجرى بقسوة وبسرعة في كل أنحاء الملعب ، واللعين يرد له كراته بهدوء وفن ، ينهك نفسه ويلهث ، والآخر أمامه هادئ متحفز متوثب ، تخور قواه واللعب في بدايته ، ويراه أمامه فى غاية الصحة والعافية ، يثور على نفسه وهو يفقد النقطة وراء الأخرى ، سيخسر مرة أخرى ، سيخسر ككل مرة ، سيصيح به : ولماذا لا تلعب حسب القواعد ... كما علمتك ؟ "

حين توقف اللعب نظر الى مضربه .

كان المضرب مفرغا ، تهرؤت شبكاته وتقطعت أسلاكه

سمع " رايت " يقول له:

- اليوم ليس يومك ... يا صديقي

***

يسبح في المياه الضحلة ، يعانق حبات المياه ويعود لأحضانها ، يتملص من ساقيها المعقودتين خلفه ، تخرج له من الأعماق وشعرها الأشقر يطير خلف وجهها

كسجادة من النور ، تتراقص أمامه ، تدور حوله ، تختفى في الأعماق ثم تظهر من بعيد وهى قادمة نحوه سعيدة ، وجه ملائكي وذيل سمكي ، إنها هي ... عروسه التي تسكن وجوده .

خلال زجاج الحمام لمح السوط الكهربائى يلمع في السماء ، في المياه تصله صوت فرقعة وانفجار يهز الكون حوله ، تهطل الأمطار بغزارة فوق الزجاج الذى يلتف حول المبنى يقيه ويحفظ حرارته ، ترتبك حركته ، يهتز ، يتخبط فى المياه ويهبط قليلا ، يشعر بالمياه تتسلل الى أنفه ، يقل الأكسجين في رئتيه ، يكف عن التنفس ، يبتلع المياه ، يكح ، يسرع نحوه " رايت " ، يرفعه متعجبا ، يصرخ فيه :

- ولكنك تستطيع الوقوف على قدميك يا رجل!!

يفتح فمه مستقبلا الهواء ، يبسمل ويحوقل ، يتمتم بكلمات غريبة آتيه من بعيد ، ينظر إليه " رايت " بعجب ويسأله:

- هل أنت بخير ؟

رد ناقما على نفسه :

- لن أتعلم السباحة مطلقا .

هناك أشياء من السهل تعلمها في الصغر

- أربع سنوات ولم أتحكم بعد في حركاتي

قالها ... ثم قال لنفسه " : أربع سنوات ومازلت أخاف من الرعد . "

وتَسأل : " لماذا أخاف منه وقد عرفت ماهيته ؟ ! لماذا ؟ !

قال " رايت " وهو ينظر اليه مدققا :

- تبدو مهموماً ... مشغول البال .. مضطرباً
- ربما ... إنها العودة ... العودة تقلقنى .

قال مرة أخرى مكررا :

تستطيع البقاء يا رجل ....

كـان يعـرف ... يعـرف عروضـه ، الأربعـون ألـف دولار .. الشـركات التـي ستتخاطفه .. المناصب التي يستطيع شغلها .. المنزل الواسع تحيطه الحـدائق ، السـيارة الفارهة ، و ... زواجه منها ... هي ... سعادته حلمه الأبدى .

قال هاربا :

- لا بد من العودة ... المشاكل كبيرة ، المسئولية ثقيلة .

سخر منه " رايت " مرددا :

- هل تظن أنك تستطيع تغيير شيء؟

السخرية من الغريـب الـذى يعـرف مصـر ومشـاكلها جيـدا ، التحـدى فـي لهجتـه يدفعه للمعاندة ، يستعيد كلماته : "مصر مستهدفة ... ستبقى دائماً بـين الحيـاة والمـوت ، ستعيش أبدا بين الشبع والجوع ..."

وصرخ فيه :

- لكني ... لكنى لو بقيت وبقى غيرى ... لو هربت وهرب غيرى ... من سـيعين هـذا الشعب المسكين ؟

ضحكة ماكرة ، توثب وتحفز فى نظراتـه ، قفـز مـن الميـاه جالسـا علـى حـوض حمام السباحة ، مسح وجهه بباطن يده قائلا :

- بحق السماء يا رجل ... أنت لا تريد أن تفهم ، المشكلة أنك تريد العودة لتسبح ضـد التيار ، أنت اقتصادى ماهر ولكن تنقصـك النظـره التاريخيـة الشـاملة ، التـاريخ لا يعود أبدا للخلف
- ولكنى لو بقيت ... ألن أكـون بورجوازيـا قـذرا - كمـا تقـول - لا يهـتم إلا بمشـاكله الشخصية ؟
- الشئ الغريب ... أنـك قـدر سـخطك علـى بلـدك تصـر علـى العـودة .. إنـك تسـعى لتعذيب نفسك
- ساندم طوال عمرى لو بقيت .
- ستشقى طوال عمرك لو رحلت .

- بل أستطيع أن أكون غنياً هناك .
- بالطبع ... ستستغل منصبك للثراء .
- ولكنى لا أريد ... قالت لى عرافة يوما إنني سأصبح ثريا .
- يا رجل ... وصلت لقمة العلم ومازلت تؤمن بالخرافات .
- ألا تؤمن بالغيب ؟
- دعك من الخزعبلات ... أؤمن فقط بما أرى وما ألمس ، وهذا وحده يكفيني ... ليس لدى وقت لغير ذلك - ألا تفكر فيما وراء الموت ؟ !
- لن يغير تفكيرى من الأمر شيئا
- لكن ... لا بد أن يكون وراء هذا الكون قوة ما ؟

صاح " رايت " وقد بدأ الضيق يتمكن منه :

- يا رجل هناك قوى كثيرة ، هل تفكر في هذه الأمور كثيرا ؟
- شئ غريب ... منذ تركت مصر ولم أعد أفكر فيها ... الآن عادت تقلق بالى وتُطير النوم من ليلى
- ولكن أين عقلك يا رجل ؟ ....
- إنه يتخلى عنى ... هناك قوى غريبة فى هذا الكون ، لا مجال للشك في ذلك ...

فكر قليلاً ثم تابع حائرا :

- لا أفهم ما يحدث لى ... كأنني أتغير استعدادا للعودة ...

العودة ... العودة الى الحرارة القاتلة ، الناموس يدور حول الرءوس والأجساد ، الفقر والمرض والجهل ، المظاهرات والحافلات المحترقة البؤس والألم يملأ الوجوه نظرات الحقد والغل تطل من العيون .

سمعه يقول :

- أنت تهرب من مشاكلك الحقيقية يا رجل ... بل أنت تخلق لنفسك مشاكل لا وجود لها ، لماذا لا نتحدث في الأشياء الملموسة ؟!
لماذا لا تحدثني عنها ؟ ماذا قررتما؟ هل ستذهب معك الى مصر ؟
- لا أدرى ... لا أدرى

- هل فهمت ... هذه هي المشكلة ... هذا ما يمنعك من النوم .. هل ستأخذها معك ؟
- لا أستطيع ... هذا مستحيل
- ولكنك تحبها ؟ أليس كذلك ؟
- أقسى شئ هو التعود على شئ ما.
- أتريد القول : الحرمان من شئ تعودنا عليه ؟
- نعم ... هذ ما كنت أقصده تماماً : لا أدري كيف سأترك حمام .. السباحة والملاعب ، الخضرة البديعة والحدائق التى تعودتها ، الأشجار والغابة التي عرفت طرقها ومخابئها ، هذه المبانى العريقة بأروقتها وقاعاتها ، أرائكها ولوحاتها ، حجارتها وخشباتها ، ضجيجها وهدوءها ، صخبها وسكونها ، هذا الحلم الذى أعيش فيه منذ أربع سنوات ... كيف أستيقظ منه ؟
- كعادتك تهرب من الحقيقة .. أى نوع من الرجال أنت ؟ !حقا

إنه لشئ عجيب ، تقول إن الأرائك والقاعات يصعب عليك فراقها ، وماذا عنها هي ؟ لم أسمعك يوما تقول إنك تحبها أو تنوى الارتباط بها .. كيف وأنت تعيش معها منذ سنوات ؟ هل الحب عار لديك ؟ أم أنك لا تستطيع التعلق سوى بالأشياء المادية ؟

- بل إن حبها يسيطر على وجداني
- هل تظن أنك تستطيع الابتعاد عنها بسهولة ؟
- كل شئ فى غاية التعقيد والتشابك ، ذهابها الى مصر جنون ، بقائي هنا مستحيل
- كعادتك تهرب ، أنت تهرب من المسئولية ، من الحياة ، تهرب حتى من نفسك

سكت قليلا ثم قال :

- حشوت رأسك بالعلم ومازلت تهرب كالطفل من مشاكلك.
- أكاد أكره نفسي
- أفهم شعورك ... إقامتى فى مصر كانت كالكابوس ، كل ما رأيت من فقر وقذارة ومرض شئ والجهل شئ آخر
- أقسى شئ هو التعود على شئ ما.
- أتريد القول: الحرمان من شئ تعودنا عليه؟
- ولكنهم سعداء .

- كفى سذاجة ... إنهم سعداء في أحلامهم فقط ، سعداء بالجنة الموعودة التى تجعلهم يستسلمون لقرصات الناموس في هناء .
- الناموس ... ماذا تعرف أنت أيها الغربي عن الناموس ؟
- إنه يحيل حياة الانسان الى جحيم الشعور بالذنب .
- أنت لا ترى سوى العقاب ...
- بل إنه يحول الحياة الى جحيم مستمر .
- أسمع سنختلف ككل مرة .... لنتحدث فى شئ آخر .
- لكنه موجود ، موجود متغلغل فى كل ذرة من كيانك .
- لا أحب الخوض حول هذا الموضوع
- بل هو الموضوع نفسه ... ليس هناك موضوع آخر
- أنت متحامل
- بل إنك - كعادتك - تدور حول مشاكلك ولا تريد رؤيتها ..
- إنها الطبيعة البشرية ... أنت الذي قلت ذلك
- هل تصدق أننا صعدنا الى القمر ؟
- أصدق ذلك
- لكنني لا أصدق أن هناك ملايين تموت جوعا وتقدس الأبقار .
- ولكنهم سعداء
- بل هم لا يتعلمون من التاريخ .
- كل يعيش قدره ... الدول كالأفراد لها مراحل تطورها.
- لكن يجب التعلم من تجارب الآخرين ، وإلا فما فائدة كل هذا العلم ؟ العجيب أنك لا تكف عن الحديث كرجال الدين ... ستلقى بنفسك في المتاعب ، ستكون تعيساً ، بل إنك تبحث عن الشقاء ، وتهرب من السعادة .
- اسمع ... أنا مبعوث من الحكومة ، لا بد من العودة .
- تستطيع تسديد تكلفة البعثة كما فعل غيرك.
- لكنك تعرف أن الدين أدبي قبل أن يكون ماديا
- لكن ... من الحماقة ترك كل هذه المميزات والعودة للمشاكل ... إنه الجنون.
- لديك حق ... إنه الجنون ، ليس هناك مفر منه.

- لكنك تحبها ... هل تظن أنك ستهرب من حبها ؟

- لا بد من العودة
- هكذا أنت دائما ... تستسلم للتيار .
- هذه المرة أنت مخطئ ... لقد اتخذت قرار العودة
- هذا ليس بقرار إنه استسلام للخط المرسوم لك

نظر اليه محاولاً حرقه ، كم يود أن تنشق الأرض وتبتلعه ، كم يود أن يدق عنقه ويخيط لسانه بحلق فمه فلا ينطق أمامه بكلمة أخرى ، كم هو يكره هذا اللعين لوقاحته وصراحته ... ولماذا يستمع اليه ؟

ما سبب تلك اللذة الغريبة التي أدمنها في تعذيب نفسه ؟ أي متعة يجدها فى سهام هذا الأمريكي التي تصيب مقتله ؟ !!

تمر رعشة بجسده المغمور فى الماء الساخن ، كيف يهرب منه ؟ !

كيف ونفسه مكشوفة عارية أمامه كشاشة الكمبيوتر ، يمتلك أسرارها وأرقامها السرية ، يدق على أزرارها ويغوص في أعماقها ، يحللها ويخرج حقدها ويلقيها بوجهه واضحة بينة ، هكذا بكل بساطة وتلقائية . أين يختبئ منه ؟ كيف وقد لمس عن قرب نقاطه السوداء ؟ كيف وقد أضاء له المنطقة الشديدة العتمة ؟ !!

قال متعبا :

- لديك حق ... أود الهروب من كل شئ .

صمت " رايت " متحاشيا استغلال لحظة الشجاعة الأدبية ، صمت دافعا إياه أن يستمر .. طالت لحظة الصمت ، ثقل الوجود ولم ينطق بكلمة تحاشى النظر إليه ، كم هو ضعيف أمامه !!

قال " رايت " ليخرجه من حرجه :

- الحياة معركة دائمة مستمرة ، لا ولن تتوقف أبدا .

ثم قال متابعا :

- الصراع في كل لحظة ... في كل مكان .
- وأمام صمته المتواصل تابع بكل قسوة :

لا تستطيع الهروب ، لن يهرب أحد ، إن لم تقاتل ستكون لعبة في يد الآخرين

نعم .. لعبة في أيدى الآخرين ... لكنه طوال حياته لم يكن سوى لعبة فى يد الآخرين !! طوال حياته لم يحصل على حريته ولو لثوان معدودة ، ذكريات الحجرة المزدحمة بالأسرة والأخوة والأخوات التي قيدت طفولته الفتى الخجول الممنوع من الكلام والحركة ، التلميذ المُغلق على نفسه مصدر سخرية الزملاء ومتلقى لكمات الرفقاء ، الشاب المستحى المتعلقة أنظاره بشباك بنت الجيران سنوات طويلة انتهت باشتراكه في زفتها. الطالب المتفوق الذى أجبره والده على دخول القسم العلمي بدلا من الأدبى ثم ملأ بدلا منه استمارة القبول في الجامعة وألقاه في دنيا الأرقام والحسابات التى يكرهها .. عالية التي اختارته من وسط المدرج المزدحم بالآلاف جرته وراءها الى عالم غريب من العلاقات الانسانية وحولته الى قرد يقفز دون توقف بين المهر والشبكة والشقة والعفش والشعور الدائم بالاحباط ، لورا التى أمسكت به كالدمية - حين انفردت به لأول مرة - وقبلته قبلة طويلة ثم تركته واقفا كالمعتوه كجواد انتهت من ركوبه ، وهى .. هل حقا اختارها أم أنها هي التي تصيدته ؟ لا ... هي تختلف عن غيرها من المستحيل أن تكون هي التي اختارت ، إنها حلمه الأبدى ، بل هو يبحث عنها دائما ، صورتها لم تغادر مخيلته يعرفها قبل أن يراها ، بل إنه يحبها قبل أن يوجد ، يحبها إن لم توجد. متى وكيف وأين ولماذا والى متى ؟

لا يدرى ولكنه يحبها ... وكيف له أن يتحمل كل ذلك ؟ !! كيف ؟

قال ليخرج نفسه من شِباك أفكاره :

- كل شئ معقد ومتشابك لدرجة الجنون .

وسمع صوته معاتبا :

- كأنك تضع قدمك لأول مرة في عالم الأحياء

وبشجاعة غريبة رد عليه ..

- ولكنني أريد العيش فى سلام ... لا أريد صراعا أو قتالا .

ورد عليه بكل جدية . وبدون أى :-

- إذاً ... لا بد أن تبحث لك عن حياة أخرى .

حياة أخرى ... لكنه دائم البحث ، دائم السفر ، دائم الانتظار ينتظر دائما اليوم الذي تصل فيه سفينته الى أفق الأمل ، متى ؟ لا يدرى ، لكنه لا يستطيع الحياة إذا تخلى عن هذه الرحلة ، سيقطع البحار العريضة ، سيتسلق الجبال الشاهقة ، ستدفعه رياح الشمال حتما الى تلك الجزيرة الموعودة ... هناك حيث تتفتح الورود ولا تذبل تنضج الثمار ولا تتعفن ، يدخل الهواء الى الصدور ولا يخرج ، الحيوانات والطيور تمرح وتلعب فى حرية ، الكل يعيش على الهواء والماء ، النمرة ترضع صغير الأبل، الدب يلعب مع الوعول ، التمساح يداعب الأسماك ، والصقور تلقم الحمائم ، والانسان يعيش ولا يموت . متى انطبعت تلك الحياة فى مخيلته ؟ متى كان يعيش كالخيال ؟ إنها دنياه الحقيقية ، دنيا لا حديث فيها إلا عن الحب ، يلتقى فيها الآدميون على رمال الشواطئ الساخنة دائما تلفهم بحنان دافئ يرقصون على ضوء القمر كل ليلة دون ندم، دون قرصات ناموس ، دون ذكريات طفولة ، دون شجن ، فقط عيون تلتهم اللحظة الحاضرة في زمن دائري متواصل ، يلحقون أمسهم بغدهم ، ولا تأتى أى أمواج لتزيل أثارهم من فوق رمال الشاطئ .

خرج من عالمه السحرى وسأله فجأة :

- ألا تخاف من الموت ؟

ورد عليه بثقة :

- لعنة الله عليه ... لقد ألغيته من وجودى
- ولكنه موجود .
- موجود ولا يستحق سوى الإهمال . هل تفكر في هذه الأمور كثيرا ؟
- أربع سنوات ولم تخطر لى على بالي

- ولماذا الآن ؟
- لا بد أنها العودة ... العودة والخوف من العودة .. لم أنم ليلة البارحة ، قبل بعثتى كنت أقضى ليالى طويلة أخاف أن أنام خشية ألا أستيقظ
ليالي طويلة أفكر في الموت وعذاب الآخرة

نظر إليه " رايت " بدهشة قائلا :

- إنه الناموس ... اسمع يا رجل ... أنت الآن تعيش عذاب الدنيا ، فاترك عذاب الآخرة للآخرة ، الآن يجب عليك أن تعيش ، وفى الحياة هناك شئ واحد يستحق الاهتمام : الحب
- الحب !!
- نعم يا رجل ... الحب ، الحياة هي الحب

ثم تابع بعد لحظة صمت :

- لو كنت حقا تحبها وتهرب منها فانت تهرب من الحياة ، ترفضها .
- هذا قدرى .
- يريحك أن تختار لنفسك دور " كبش الفداء"

لم يرد ... نظراته تغوص فى المياه الخضراء التي تتألق في عينيها حين يقترب منها يلمح الزرقة السماوية الصافية ، سمع " رايت " يسأله :

- وهى ... ألا تدرك الألم الذي سيسببه رحيلك ؟

دفع الحائط بقدمه سابحا بعيدا عنه ، ولكنه لن يتركها ... مَنْ قال إنه سيتركها ؟ الآن يعرف كل ما ينتظره ، تحت المياه ، في العالم الفستقى الأخضر الشفاف ، رأى وجهها المنير يسبح نحوه .. قادمة من القاع ، شعرها الذهبى الطويل يلف رقبتها وجيدها ، عانق المياه عائدا بين أحضانها التى زادتها المياه طراوة وليونة ، طبعت

قبلة كـالحلم علـى شـفتيه ونظـرت اليـه تطبـع صـورته فـى مقلتيهـا قبـل أن تهـز ذيلهـا السمكي مختفية .

سمعه يقول بعد أن رأها تخرج من المياه :

- أنت تحبها

لم يجب ، أدار ظهره .. تابع الآخر :

- تحبها منذ رأيتها معى فى القاهرة .

زاغت الدنيا أمام عينيه ، لملم أشياءه مستعدا لمغادرتـه ، سـمع صـوته يأتيـه مـن الخلف بحدة :

- أنت جبان رعديد

سكت الصوت لحظة ثم تابع :

- تحمل مسئولية حبك يا رجل.

وتهكم :

- تحمل مسئولية حبك يا رجل.
- هل أنت رجل ؟ !إنك لا تستحق هذا اللقب

استدار نحوه ، واجهه ، نظر إلى عينيه فى ثبات وثقة ، لمحة من جفـاء تتملكـه ، خيل إليه أنه فهم كل شئ من عينيه .. صرخ فيه :

- أنت السبب فى كل ذلك .
- تهكم الآخر :
- أنا ... أنا الذي أحضرتك الى هنا ؟
- انت وراء كل شئ .

- بل هو تكوينك المعوج الخاطئ .
- بل أنت السبب
- بل هو الناموس

وغلى الدم في عروقه ، هجم عليه قابضا على عنقه وهو يصرخ :

- من سنوات وأنا أمنع نفسى من فعلها ... سأقتلك يا كافر يا زنديق قبل أن تفتح فمك مرة أخرى وتهاجم الناموس ... سأقتلك ...

وامتدت الأيدى الضعيفة الواهنة تحاول فك قبضتيه عن العنق ، سمع صوت أخيه الصغير طارق يزعق مهرولا خارج الحجرة :

- بابا ... بابا ... الحق عادل ... هيخنق نفسه .

***

مرحبا أيها الجنون

الحب سجن .. يا حبيبي

أطلق سراحى

إذا عدت فأنا لك ..

إن لم أعد ،

فلم أكن أبداً سجينك "

في الليلة التالية كان متكوما على الأرض كالجوال البالي ، القذارة والفوضى تنتشر حوله ، رأى أصابعه ترتعش تحت الجاكت الأبيض الذي يقيد يديه ، كان يصرخ مطالبا بتحرير يديه ، يقفز ضاربا الأرض بقدميه ، يتهمهم بالجنون ، يراهم ينظرون إليه نظرة غريبة تعلوها الشفقة ، كيف يعاملونه هذه المعاملة ؟ كيف ينتزعونه من أمام طلبتة ويلقون به وسط المجانين ؟

يحاول أن يتذكر كيف بدأ كل ذلك ، الخيوط تتقاطع وتتشابك ولا يستطيع الإمساك بها ، لديهم القدرة على كل شئ سيصنعون منه حملا وديعا ، يتذكر الأدوية والحقن ، الإبر التى مازال يشعر بوغزها .. ولكنها لم تكن الإبر ، كانت وغزات الناموس ، بالطبع ... كل شئ يقوده الى الناموس ... الناموس وراء كل شئ ... هو السبب .. هو ...

وتعود لذهنه همسة صديقه : " إياك ومحاربة الناموس . " .

وحين أمسك بخيط ، بعد طوال معاناة ، وجد نفسه تحت قبة الجامعة .. وجد نفسه ينظر لمهابتها بسخرية جديدة عليه ، كان يوما شديد الحرارة كثير الضوء ، وقف مختبئا وراء نخلة صغيرة تقيه بظلها البائس من وهج الشمس اللافح ، كلن يلاحق إفرازاته الجلدية النشطة ، يحاول تجاهل الأصوات النافرة التي تصدم أذنه ، يتجاهل النظرات المستحية التى تتفرس حريته ، يحاول أن يكون وحيدا ، يمحو الآخرين من وجوده ، ينفرد بنفسه حتى يتحد معها ، هي وحدها القادرة على قتل وحدته الدائمة السوداوية .

يومها شعر بنفس اللذة التي اعتاد عليها حين يمسك بخطاباتها فتح المظروف وهو يوارى سعادته ، قال لنفسه : إنه محبوب ، إنها لن تتركه أبدا ، إنها تفهم ضعفه وحيرته، رغم كل ما فعل فهى له .. بل هو الذي أصبح عبدها .

لكنه حين أخرج الورقة من داخل المظروف وجدها بيضاء ، أختفى العاشقان المُفعمان بالسعادة من وسط الورقة الوردية التي تعودت إرسالها تبخر العطر الرقيق المتطاير من خطاباتها والذي يعيده الى أحضانها .

فقط كلمات بحبر أسود على الورقة البيضاء

فى البدء كنت خائفة ..

ظننت أن الحياة مستحيلة بدونك ...

لكن .. ها هي الحياة تمضى ..

مادمت أنت الذي كسر قلبي بالرحيل ..

فاذهب .. فقط أغلق الباب خلفك ..

فلن تكن محل ترحيب بعد اليوم .

***

يومها بدأت مشاكله . عرف أن العودة قد بدأت ، وأن جنته أصبحت بعيدة . توقفت الحياة ، اتسع الفضاء حوله ، أدرك مدى صغره وضعفه ...ها هو وحيد ، ضائع .

ركبه الخوف ، نظر إلى الورقة ... كانت عديمة اللون ، نظر حوله .. لم يعد فجأة لوجوده معنى .

يتذكر أنه سار بعدها على قدميه ، ترك الجامعة ونسي محاضراته كان يقول لنفسه : إنه لا بد أن يراها ، لا بد أن يتحدث معها ، سيركع تحت قدميها ، سيقول لها إنه بدونها لا شئ ، بل إنه شي مُعذب ، سيقول لها : إنه يعيش من أجلها ، وأن حياته توقفت عند لقائها ، ما قبلها لم يكن له معنى ، ما بعدها هو بقايا عطرها

سار طويلا ، تائها ، هائما ، كان يدرك فى سيره أنه قد قَصَّر في حقها ، حتى خطاباتها لم يرد عليها ، وحين عرضت عليه الحضور لقضاء رأس السنة معه رد عليها .. كان الخطاب الوحيد الذي أرسله قال لها إن مطار القاهرة مفتوح ولكنها لن تجده . من حقها أن تعاقبه ولكنها مازالت تحبه ... لذلك لا بد أن يكلمها.

حين عاد إلى نفسه كان ذلك أمام موظفة في شركة طيران

حين أعطاها الخطاب ردته الموظفة ، سخر من نفسه ، أين يجدها الآن ؟ كيف تركها وكانت بين يديه ؟ !!

يتذكر جيدا أنه قرأ أغنيتها آلاف المرات ، الأغنية التي كانت تكره سماعها، ها هي ترسلها له لتقذف به خارج دنياها إنها تنساه ، ماذا ينتظر من امرأة متحررة أبية النفس مثلها ؟ !!

يومها أدرك أنه جبان رعديد ، وأنه يحبها

أدرك أنه غير جدير بها ، وأنه سيكتفى بطيفها .

***

في المساء أدار إسطوانتها ، لكنها لم تأت ككل ليلة ..

جن ... انتظرها لتلحس حلمة أذنه وهى تطوقه من الخلف ...

أن تمرر بلسانها على رقبته تستحلب عرق يومه ، لم يسمع صوتها يدغدغه هامسا : " لا تغتسل يا عسل ... أفضل جسدك مشبعا بحياة يوم كامل على جسدك نظيفا معطرا ."

لم تقل له : " تعال لأتذوق كل ذرة من ذرات جسدك البرونزي المصقول بشمس الصحراء والمعجون برمالها المالحة " .

لم تأت ... ولم يأت النوم .. كانت هى الوحيدة القادرة على حمله الى مملكته ، حين يدخل يجدها هناك تنتظره ، فى تلك الحجرة الفسيحة من سكنات الجامعة المحاطة بالغابات ، هناك عرف الحياة ، يطير فوق أجنحتها البيضاء ، ويصل معها الى عوالم مخدرة وردية ، يرتشف منابع الحياة ومصادر اللذة ، يرتوى وتفيض به نفسه ، لا يتحمل كل السعادة التي يعيشها معها ، تثقل عليه .. يريد أن يعرف العالم كله ، أن يغرف الجميع منها ، لديه ما يكفى البشر أجمعين ، يجرى باسطاً ذراعيه لكل من يبحث عن السعادة ، يفيق على رفسات أخيه ترده محتجة الى مكانه في الفراش ، يجد نفسه مازال فى الحجرة المكتظة بالنائمين ، المشبعة بالأنفاس الثقيلة ، نصفه العلوى مبلل بالعرق ، والسفلى بإفرازات اللذة

وكيف يتخلص منها وهى تسكنه ؟

وكيف تطرده من عالمها الأرجواني ؟

هذه الليلة رأها في فراش غيره، ذهبت لتنتقم منه في أحضان الآخر ، راها تتمرغ أمامه متعمدة بنغج يعرفه ، سمعها تردد نفس الآهات الموجعة التي أحرقت روحه ، لم تكتف بذلك ، بل ظلت تردد الكلمات التي طالما اطلقتها عليه ونادته بها .

ليلتها غمزت بطرف عينها اليمنى وهى فى قمة النشوة وقالت له :

- أنت لا تعلم قدر خسارتك يا حبيبى .

***

ومن ليلتها وهو يتساءل ؟

- أى عقد أبقى من القبلة ؟

وتسخر منه نفسه قائلة :

- أنت الذي ظننت أنك مارست معها الحب في طريق سفر !!

وقالت له :

- أنت الذى اعتقدت أنك ستحصل على كل شئ دون أوراق وعقود !!

عرف أن بصمتها تلتف حول روحه ، تدمى جسده ، تعذبه أضعاف ما يعذبه به خاتم عالية في إصبعه ، كانت بداخله وحوله .. تعيش وتتحرك أمامه .. يستمع لهمهماتها ويحاورها .. يحاول جاهدا إيجاد معنى لكلماته التي لا معنى لها .. تشفق عليه وهو يلوم نفسه في نفاق حماته ، تضحك واثقة وهو يحاول البحث عن حبه الضائع لعالية ، تقول له : " تزوجها يا حبيبى فلن تجد سواى فى فراشها . " .

ويسمعها تقول ساخرة : " لا أحد يهرب من الحب." وحين تأتى يشعر بقلبه يرفرف بين أجنحته حين يراها ، خلجاته تستقبلها بالسعادة غير عابئة بعقله الذى يبعدها رافضا ، يسمعها تقول معلقة على ترتيبات زواجه بعالية : "الغابة مليئة بالحيوانات السعيدة التي تختار إليفها دون طقوس . "

ويتذكر أنها قالت له:

- الحب شئ خطير .... يغير الكائن ويجعل كرات دمه تغلى .

***

وهل بدأ حبه لها حين لفظته ؟

يعمل عقله ، يثيره عليها ، هو وحده بذكائه القادر على التصدى لها هو الذي كان يراها عاهرة متبرجة مسترجلة ، هو الذي كان ينظر لعينيها ويسميها النجوم الزائفة ، كيف يراهما اليوم عيون الحقيقة ؟ !كيف يتقبل بهدوء الأنثى التى طالما تمددت عارية بجانبه ؟ كيف بعد سنوات من الاستنكار يجد نفسه تتمنى - ولو في الخفاء - أن تكون لعالية نصف شجاعتها وربع صراحتها ؟

الحقيقة ... أنثى تفتخر بأنوثتها وحبها ، دون عقد وجروح...

تعطى نفسها وروحها ووجودها لمن تحب ، حرة متوثبة شرسة ، تغلق عينيها على حبيبها فلا ترى سواه ، هو الوجود وكل الوجود ينحصر في شخصه ، لا يهم من أين أتى وأين سيذهب ، لا تسأل كم يملك وكم سيكسب ، تتمتع به وتمتعه بوجودها ، تفرغ شهواتها بين أحضانه ، حين تتركه يكون جسدها قد اغتسل من ماء الوجود ، وحلقت روحها في غيابه بعيدا عن العالم ، تزداد أشواقها كلما غابت ، حين تعود إليه تطير به بعيدا ، تفترش قمم الأشجار وتشاطر الطيور طعامها ، تغازل أشعة الشمس جبينها وهى توقظه ، تداعب نسمات الهواء خصلات شعرها وهي تقبله في المساء ، تحلم بطفله الذى سيكون مزيجاً من السمار والبياض ، من الشرق والغرب، من العلم والسحر ، من القوة والجمال ، تقضى أياما تخترع له اسما ، اسما لم يخطر على بال ، تتصوره فرحة العمر ، معجزة الطبيعة ، بهجة الحياة :

وتردد فى أذنه :" بالحب وحده نتغلب على الموت. " .

وكيف تركها ؟ ولماذا رحل ؟

ليلتها فهم قولها :

- أخطر شئ في الوجود هو التقاء شخصين.

ليلتها فهم أنها تركته ، لكنها مازالت تعيش تحت جلده .

ليلتها غادر محطة حياته .. أخر قطار للنوم ، حاول أن يلحقه لكنها

طردته ، جرى مجنونا على الرصيف وهو يراها ترحل ، شعرها الأشقر يطير

في الهواء ، تنظر إليه فى حيرته ، تقول بعجب .

- لا داعى للجرى وراء القطار ... انتهى كل شئ بيننا

ولكنه يجرى ... من غير المعقول أن يتركها تذهب تستطرد :

- كان يجب أن تكون بجوارى ... داخل القطار .

ورأى القطار يزيد من سرعته ، يفهم من نظراتها أنها مازالت تحبه .. إنها تنتظر منه شيئا ، يخلع خاتم عالية من إصبعه ويلقيه أمامها على الأرض ، يصرخ مطوحا ذراعيه فى الهواء :

- أحبك ... أحبك ... أنا تعيس بعيدا عنك

يسمعها ترد واثقة يائسة منه :

- أنت تعيس في كل الحالات ...

يصرخ :

- سنتزوج ... سنتزوج

قالت بسخرية قبل أن تختفى :

- أنت جبان .. معجون بماء الكذب .

ثم قالت :

- ستحلم بي كل ليلة ... يا حبيبى

***

لكنه شبع أحلاما ، يعيش حالما ويحلم نائما ، كيف أفلت الأمر من بين يديه بهذه الطريقة ؟ من دفع به داخل هذه المصيدة ؟ أين عقله ؟ ... أين ذكاؤه ؟ !كيف بدأ كل ذلك ؟ كيف ؟ !!

إنها الشقة ... الشقة هى التى طردته من عالم الحب وألقت به في عالم الغرائز الحسية المرفهة ... الشقة التى لم يستطع تحضيرها في القاهرة لتسافر زوجته معه الى أمريكا، أى جنون ؟ !!أى حكمة في أن يكتب كتابه ويسافر بعثته بدون زوجته التى لم

توافق القردة على سفرها بدون شقة فى القاهرة ؟

وهل تستطيع الورقة التي بصم عليها أن تبقى عالية زوجة له ؟

أي مكان بقى لها في قلبه بعد أن غاص القلب في محيط الشهوات، ولم يعد يكتف بالشواطئ المستحية ؟

عالية ... زوجته التي لم يلمسها إلا فى صالات السينما الكالحة السواد ، بعيدا عن عيون القردة وحاملي الأختام ومتعهدى حكمة الكون ... عالية التى لم يُقبلها إلا فى بئر السلم موصماً فعلته بالعار والذل والشهوة المحرمة .. عالية التى تزوجها وقيدها ثم ذهب يرتمي في أحضان الشقراء التي فهمت بنظرة مدى حرمانه ومقدار تعطشه للحب والحنان ، عرفت كيف تخرج الرجل القابع في عُقده ، وتُطلق الحيوان الجامح سنوات في أعماقه .

وكيف يقاوم ؟ بل من يقاوم الآن ؟ بين الامرأتين يتمزق....

الحليلة التى تجرى وراء طلبات أمها ، والخليلة التي كانت تجرى وراء اللذة والحب .. السمراء التي لا تكف عن تذكيره بمتطلبات الحياة والشقراء التي تحدثه عن ارتشاق الحياة .. الشرقية التي تشده الى الأرض ، والغربية التى تنتزعه منها وتطير به الى السماء عالية التي كان يجب أن تتبعه التصقت بأمها ، ومعبودته التي كان يريد التخلص منها تلتصق به

كيف بدأ كل ذلك ؟

ولماذا بدأ ؟ ولماذا أرسلوه اليها ؟ !

كان يعرف أنها تنتظره .. حين هبط من الطائرة وجد رسالتها تنتظره .. بها كل ما يحتاج من معلومات وإرشادات .. قادته الى الطائرة الصغيرة .. فى المطار الصغير كانت بانتظاره .. وقع في سحرها منذ الدقائق الأولى وهو يراها تقود العربة بمهارة وتحدثه عما ينتظره ، وأن كل شئ معد لاستقباله ، وأن مستر " رايت " ينتظره في الصباح التالى .. في حجرته وجد كل شئ مرتباً ونظيفاً .. الثلاجة مليئة بالمأكولات .. على الحوض فرشاة للأسنان ومعجون جديد لم يلمسه أحد .. على المكتب صندوق أسود من الكرتون المقوى يحمل اسم الكلية .. على الصندوق اسمه

مطبوع بحروف لاتينية ، داخل الصندوق مطبوعات تجيب على كل ما يمكن أن يمر بذهنه من أسئلة عن المنطقة والمدينة والجامعة وكلياتها .. الدراسة والنشاطات .. مواعيد المطعم والمقهى .. أخذته لتريه أروقة الكلية ، حمام سباحة وملاعب تنيس ، صالات جمباز ومسرح .. صالونات واستقبالات ، مكتبات وقاعات قراءة .. دارت به حول مبانى الكلية تريه ملاعب كرة القدم والفولى بول .الباسكت بول .. توغلت به قليلا في الغابة تشرح له مسالكها وطرقها ومواعيد مرور الحافلة التي تقله الى المدينة الصغيرة المجاورة .. حين عادت به الى حجرته كان فى حالة متقدمة من الإعجاب بها ، كأنه لم ير امرأة من قبل ، كأنه اكتشف أنه رجل ، ناقص الرجولة .

وفى حجرته صرخت متأسفة :

- نسيت الخبز .

رد مدهوشا :

- أي خبز ؟

قالت ببساطة وعفوية :

- ابتعت بعض المأكولات لعشائك ونسيت الخبز .
- لا أهمية لذلك

قالت بجدية :

- مستر " رايت " قال إن المصرى لا يستطيع تناول طعامه بدون خبز .

ثم قالت بجدية أكثر :

- أنا آسفة حقا سأدفع ثمن غلطتى ... سأعزمك على العشاء الليلة .

في المطعم رقصت أنظاره أمام أسماء الأطباق في القائمة ، كانت القائمة بالانجليزية ولكنها مكتوبة بحروف يصعب عليه فهمها ، حين رأت ارتباكه وطول تردده قالت بكياسة :

- سأختار لك ... أعرف تقريبا ذوق المصريين ..

ثم قالت :

- لا تخف ... سنشرب الماء المثلج ولن نأكل لحم الحلوف

وحين وضع الجرسون أمامها طبقى " السوبوكو " قالت فرحة :

- مستر " رايت " قال إن المصرى يحب اللحم المطبوخ في صلصة الطماطم

ولكن قطع اللحم البقرى كانت مربوطة جيدا بخيط مطاطى شديد الصلابة ، يحيط بها من جميع الجهات فى كتلة واحدة .. ظل يقلبها في جميع الاتجاهات ولا يعرف كيف يهاجمها .. الشوكة والسكينة تهتزان في يده ولا يدر كيف يستعملها .. وحين أدركت الموقف كست الحمرة وجهها خجلا ، وبنفس الكياسة التى لن ينساها مطلقا قالت :

- هؤلاء القوم يستخدمون خيوطا حديدية لا يمكن فكها .

وأزاحت ما بينهما من زجاجات وأكواب وملاحات ، بمهارة غرزت شوكتها في أحد جوانب قطعة اللحم ثم أعملت سكينها بمهارة في الخيط فانفك متقطعا وتراخت قطع اللحم أمامه بعيدا عن قطعة العظم التي كانت تتوسطها .. حين فعلت كل ذلك تأكد أنها تجذبه نحوها كالمغناطيس .

وأكل معها كما لم يأكل من قبل ، يراقب حركاتها وكيف تقبض بالشوكة على حبات الأرز ثم تخلطها ببعض الصلصة وترفعها بمهارة الى فمها دون أن تميل الى الأمام .. وحين انتهى من التهام قطع اللحم الشهية والأرز المخلوط بالصلصة المليئة بقطع الجزر والبقدونس والبصل المشوح أزاح الطبق من أمامه علامة الانتهاء ، تعجبت قائلة: -

- ألا تحب النخاع ؟

قالتها بالانجليزية فانفصلت أسلاكه ، بحث فى مفرداته وقواميسه عن تلك الكلمة ، صمت ، نظر إليها نظرة البدائى أمام مرأة ، لم تتردد كالأم الحنون التى تطعم صغيرها ، وبابتسامة سمحة ، تقدمت بشوكتها وغرزتها فى قطعة العظم فلم تعد تتحرك ، بالسكين أخرجت من داخل ماسورة العظم قطعة هلامية من النخاع ، حررت الشوكة ووضعتها فوقها بمهارة .. باشارة فهم ، تقدم فاتحاً فمه وهى تقترب

بالشوكة مليئة بالنخاع.

قالت فرحة في بساطة أعجبته

- هل تحب ذلك ؟
- لذيذ ... لذيذ

وحين انتهى من التهام قطعة الجاتوه المعجونة بالبرتقال وتخلص من بودرة السكر التي كانت تعلوها وتلتصق فوق شفتيه وشرب فنجانا من القهوة المركزة كان قد أحبها .

كانت أمامه امرأة كما حلم بها دائما ، حين تخلصت من معطفها رأى خصرها الرقيق ، حين استدارت لتعلق المعطف لمح ردفيها المرسومين بدقة على بنطلونها ، حين جلست أمامه تسمرت نظراته فوق بلوزتها الحريرية الرقراقة القرمزية التى كانت تهتز كلما تحركت وترسل وخزات أبرية تشعل نيراناً فيما بين ساقيه .

كانت تتصرف كطفلة وخيل اليه أنه يعرفها من سنوات ، قال لنفسه " هذه هي المرأة " بعد العشاء رآها تقول له " مرحبا بك في أمريكا" . رأى نفسه يطير في الفضاء مرتديا ثيابا فضائية تلتصق بكل جسمه، وراها تأتى نحوه طائرة مرتدية نفس الثياب ، دارت حوله ودار حولها بسرعة عجيبة فخلقا زوبعة تحولت الى إعصار ، رأى ثيابه تتفتح عند صدره وأمام عضو الأخصاب ، وثيابها تتفتح على ثدييها واستدارة ردفيها رأى قوى الطبيعة تدفعهما ليلتحما حتى يصيرا جسدا واحدا ثم تفرقهما ....

يراها تطير بعيدا عنه ثم تعود ملتاعة مشتاقة لعناقه ، حين هبط على الأرض رأى أمامه عالية منتفخة الوجه والأرداف ، تلبس حجابا يخفى وجهها ولا يظهر سوى عينيها وجلبابا أسود طويل يمتد أمتاراً بعيدا عن ساقيها ويفترش الأرض ، وعليه جلس العديد من الصغار المتعددين الأعمار يقيدون حريتها .. وكلهم يشبهونه .

هناك عاش حياته معها ، سنوات ولم يتبق من عالية سوى صورتها التى أخفاها جيدا فى قاع الحقيبة ، ثم خطابا تها التي كانت تصله منها ، تحك عن الألف جنيه التى ادخرتها من عملها ، عن هجوم القردة عليها وأقوالها عن ارتفاع الأسعار الجنونى ،

تحثه على ادخار أى مبلغ وإن أمكن العمل صيفا لحل مشكلة الشقة وتحلم ... تحلم بتلك الليلة بالطرحة والفستان ، باللحظة التى ستصبح فيها أمرأته ، ثم تقلق تقلق عليه من بنات أمريكا وتخشى أن يرتمى فى أحضانهن وتسأله ... تسأله فى كل خطاب إن كان يحبها ومازال ، تقلب ذكرياتها معه التي أصبحت بعيدة باهتة باردة ، تخاف على حبهما من الأيام ، تخاف من شئ ما ، تخاف أن تخمد الشعلة .

أى حب !! في أي زمن ؟ !!

ويكتب لها " عالية ... عن أي شعلة تتحدثين ؟ أي شعلة وحبي لك يحترق كل ليلة على مذبح اللذة المباحة ؟ تبلدت عواطفى ، زاغت صورتك الوردية الوديعة وسط الوهج المنبعث من صدرها المشتعل، ضاع صوتك وسط آهات التألم الشبقية.".

ويكتب لها : " أعرف أنك هناك فى الجانب الآخر من الدنيا تتعذبين أعرف أنك تنتظرين ، وأنا ... أنا هنا بين جمرات العشق أتقلب ، في نعيم الأباحة أتمرغ في أحضان اللذة ، تنطلق صرخاتي لا أعرف إن كانت لذة أم وجعة ، عالية ... حبيبتي ، زوجتى ، تشربين كل يوم كأس الحرمان وأنا أتشبع بلذة الحياة ، تصارعين السنين وينساب شبابك بين أصابع الأيام ، وأنا ... أنا هنا أشترى بشبابي لذة مجنونة فانية.".

ثم يكتب لها :" ماذا تبقى لديك لتعطيني ؟ ماذا أنتظر منك وماذا تبقى لدى لأمنحك ؟ حبنا يطل بحياء من بين سطور خطاباتك ، يدى تتجمد بالكذب والرياء حين أكتب اليك ما تستلمينه من خطاباتي ، كلماتك تثقل على ذهنى ، مداعباتك وقبلاتك الغفرة تثير رثائي ، لمساتك كفتات أمام مائدتها الدسمة.".

ويكتب ، يكتب حتى قبل سفره عائدا :" أى عقل ... أي حكمة ... خمس سنوات بعيدا عنك . أى حكمة لهؤلاء القوم الذين يعرفون كل شئ ؟!!

ويكتب : " عالية ... هل مازلت أحبك ؟ هل أحبك لعنادك وتمسكك بي رغم فقرى ؟ هل أكرهك ؟ هل أكرهك لاستسلامك للقردة ومنطقها البائد ؟ !!هل أعطف عليك لحرمانك من حبى كل هذه السنوات هل أحقد عليك لأنك لم تهربى معى ؟ هل أطلب الصفح ؟ أعترف لك بفشلي ولكنني حاولت ... لم أستطع مقاومة الجسد فحاولت وضع رأسك الوديع فوق جسدها البض السخى ، كنت أظن ان الجسد مجرد وعاء ،

ظننت أنك ستبقين الأصل ، والروح ، والسماء ، ظننت أنها ستكتفى بأن تكون الأرض ، والمادة ، والغريزة، لكن الأشياء والقوانين أعقد مما كنت أظن ، تشابكت وتضاربت المشاعر داخلى ، ها أنا أستسلم لها جسدا وروحا وعقلا .. لماذا لم تأت معى ؟ وكيف لي أن أقاوم هذا الجمال والذكاء والفطنة ؟ ... كيف ؟ وكيف نعود لنستمتع بقبلاتنا العذرية ؟ وكيف اكتفى برشفة بعد ان سبحت في بحار اللذة ؟ كيف ابدأ حياتي معك وقد تشربت من لذات الحياة حتى الأرتواء ؟ كيف وقد ضاع الوجد وفترت الأحساسات مع الرتابة والتكرار ؟ أى متعة تستطعين تقديمها بعد أن ذقت المجون حتى التشبع ؟!!

ويكتب ... ثم يمزق كل ما يكتب ، ويلقى بالأوراق تشتعل أمامه في نار المدفأة، ويتمزق

ويكذب ... يقول لها إنه بحث عن عمل في الصيف ولم يجد ، ويعرف أنه لم يبحث ، وأنه كان معها على شاطئ المحيط يتمرغ عاريا ، يقول لها إن كل وقته يقضيه بين قاعات الدراسة والمكتبات ، وأنه وحيدا وسط الصقيع والبرد والعواصف ، يكتب ذلك بينما يراها عارية في فراشه تطلب منه أن يكف عن العمل ويوفر لها بعضا من طاقته ، وحين يرفض تترك الفراش وتقف خلفه تدلك عضلات ظهره وهى تقبل عنقه و تلحس اذنه فيترك أوراقه ويرتمى فوقها كالمحموم ، ويكتب لها أن أمريكا مجتمع استهلاكى مجنون ، يكتب ذلك وهو يحفظ أسعار الصابون وبرطمانات المربة وعلب الزبادي عن ظهر قلب ممنيا نفسه أن تفوز بطاقته في السحب ويذهب الى البرنامج التليفزيوني " الثمن مضبوط " ويكسب الهدايا والالاف من الدولارات، ويكتب لها أن الغرب منحل والأخلاق منعدمة ، يكتب ذلك بعد أن يوافق مستر "رايت" على أن الكبت الشرقى يولد انحلالاً أكبر من انحلال الغرب وأن المرأة الحرة هي وحدها القادرة على خلق أجيال حرة ، ويكتب ... يكتب لها انه لم يتغير ، هو يتغير !!! مستحيل . إنه سيعود لمصر كما سافر منها بنفس الأفكار والمعتقدات ، نفس العادات والتقاليد ، ويكتب لها ، يكتب أنه وجد الحل لمشاكل مصر الاقتصادية ، واكتشف أسباب خسارة شركات القطاع العام ، وأنه هو قد وضع برنامجا عبقرياً فذاً سيجعل شركات القطاع العام تكسب ، وأنه سيدخل الملايين الى خزانة الدولة ، وأن مصر لن تندم على الآلاف التي أنفقتها على بعثته .. هو الطالب المتفوق ابن مصر

البار .. يكتب لها كل ذلك وقد بدأ يشك في وطنيته ، في أفكاره ، في ضرورة رسالته ، ويكتب لها مفتخراً بأنه سيقنع أمريكا كلها بالاشتراكية ، وأن رسالته الإنسانية ستؤثر فى مستقبل الاقتصاد الأمريكي نفسه ، وأن أستاذه " مستر رايت " معجب به وبعبقريته ، وأنه سيتحول على يديه ، هو الطالب ، من الايمان بالرأسمالية الى اعتناق الأشتراكية ، يكتب ذلك وهو يقف متزمتا أمام أستاذه غير متقبل للمناقشة ، بل غير معترف بأن الاتحاد السوفيتى نفسه يتحول الى الرأسمالية ، وأن الصين تتحول الى هونج كونج

يكذب ويكذب حتى أصبح يصدق كذبه.

يكذب ولم يعد يعرف حقيقة نفسه

ولماذا لا يصارح نفسه ؟ من أى شئ يخاف وقد أصبح كل شئ واضحاً ؟ !هل يظن أنه سيبقى نفس الشخص بعد أن وقف أمام تمثال الحرية وأستمع لكلمات "رايت" وذاق الحرية في أحضانها ؟ !!

ويأتيه صوتها واضحا :

- أنت تخاف من الحرية ... أنت تتهرب من المسئولية

وكيف يعود للوراء ؟ كيف يلغى من وجوده هذه النقلة التي قضت

على سعادته وراحة باله ؟ كيف ... كيف ؟ !!

ويأتيه صوت " رايت "

- من يقلب ذكريات الماضي نادماً لا مستقبل له .

يعرف ذلك ... استباق الزمن ممكن ، العودة مستحيلة ، لا داعى للخوف من المستقبل ، المستقبل عالية ... من غيرها ، سيهرب إليها سيحتمى بها ، هي الصابرة منذ الأزل ، المنتظرة منذ القدم ، سيترك كل شئ فى صدره ، سيغمرها بالحنان ليكفر عن ذنوبه ، ستسامح وتغفر له كعادتها ، ستفهم كل شئ ولن تتكلم ، ستتعذب في صمت وتحاول إسعاده .

ولكنه لم يفقد شيئا ..... تمتع ولم يدفع الثمن ...

يلزمه فقط قليلا من الخبرة .. كثيرا من الجبن ..

سينسى ليلة الأمس ... والليالي التي سبقتها...

سيتناسي .... سيحاول .... وإلا ..... الجنون

***

الأوراق تسقط في الربيع لية

أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه ،
وأبعد البعداء من كان بعيدا محل قربه ،
الغريب من اذا ذكر الحق هجر .
واذا دعا الى الحق زجر ،

ابو حيان التوحيدي

في الليلة التالية وجد نفسه فى نفس المكان ، نفس الزيارات بالملابس البيضاء ، هدأت ثورته وسكنت أعصابه ، ظن أنه قضى عمره كله متمددا على ذلك الفراش الصغير فى العنبر الكبير ، يتطلع بشغف الى اللحظة التى يأتون فيها ويمررون السائل السحرى في دمائه ، لم يكن أبدا بهذا القدر من السكون والطمأنينة ، لم يشعر مطلقا بمثل هذا القدر من الأمان، وخزة وتنتهى مشاكله ويعيش العالم كله في استقرار كيف لم يفكر فى هذا الحل من قبل ؟ كيف لم يصنع سعادته بنفسه هو الذي يمتلك مصيره ويكتب مستقبله ؟ !

وحين حاول العودة لليلة الأولى فسد كل شئ ، رأى عروقه تنفر ، دقات قلبه تتسارع ، أعصابه تتوتر ، غدته الدرقية تزيد من افرازاتها، يفتح عينيه ناظرا للسقف ، يرتعب ، يعدل عن محاولته ، هو مستعد لكل شئ لتجنب الأرق ... فهم ، لا بد أن ينطلق للأمام ، للمستقبل يالغباءه ، كيف يريد تغيير الماضى ؟ هل هو ساذج لهذه الدرجة .

ينطلق الى الأمام، يصعد خيوط الوقت العنكبوتية التي تحط فوق المدينة النائمة ، فى الزحام تئن الوجوه مستسلمة، الأنظار مسلوبة ، يرى العقول مسجونة ، الأرواح مُفرغة ، الأجساد تسير محملة بحقائب الأمل تستعد للرحيل ، كلهم بلا مأوى ، كلهم يبحثون عن الفردوس المفقود ينظرون للعصافير بعيون مثخنة بطيف الحلم ، يرى نفسه فريسة في خيوط العنكبوت الدقيقة التشابك.

في مدينته رأى العناكب تعشش فى فنادق متعددة النجوم ، الغراب ينعق بالموسيقى الغربية والشرقية ، رأى نفسه ينساق كالضحية الى المقصلة ، حوله الذئاب تتسكع ، الأسوار تعلو ، الجدار تمتد ، الوحدة تتوحش . وسط الضجة كان وحيدا ، فوق كرسى الملك .

لكنه لم يكن وحده .على كرسى الملكة جلست عالية بطرحتها البيضاء وفستانها الأبيض ، أمامه راقصات تتقصع ، فى الركن فرقة موسيقية ، في الركن الآخر مائدة مستطيلة طويلة عامرة ، الموسيقى تصدع رأسه ، الوجوه تقلقه ، كيف تجمع كل من يعرف في هذا المكان ؟ من أتى بهم ؟ !!

ينظر الى عالية بجانبه ، تبتسم للجميع وتطير الفرحة من وجهها .. وجهها الذى

قارب على البياض ، يضحك سرا وهو ينظر اليها ، لماذا ترفض ان تكون سمراء ، كيف ترفض سمرتها ؟ كيف ترفض نفسها ؟ وشعرها الذي تحول الى اللون الذهبي ، رموشها وشدت للأمام وكُسرتُ لأعلى ، عينيها تلونتا بالأزرق والأخضر وسحبتا الى جانبي وجهها ، طمست البثور بمساحيق البودرة فاصبحت بشرتها بيضاء ملساء نقية ، ولكنه يعرف أنها تحت السطح موجودة ، تملأ بشرتها كالبرص ، دوائر القلق دفنت بكميات من الكريمات حول عينيها ، شعرها الذي تبدل لونه أصبح أكثر نعومة وانسيابا ، زادت قامتها عدة بوصات بفضل الكعب المرتفع، ربطوا وسطها بكورسيه حتى تأخذ شكل امرأة وهيئتها ، الثوب الطويل الفضفاض يخفى الشحوم والتورمات التي تراكمت واستقرت ، فوق رأسها تاج فضي سخيف قليل الذوق به فصوص تلمع كلما تحركت ، تخلص من يدها المليئة بالعرق ، يسأل متعجبا

- -هل حقا سأتزوجها ؟ !

ولكنها زفته ، أخيرا سيتزوج عالية ، بل هو يتزوجها الآن ، يتزوج زوجته التى عقد عليها قرانه منذ خمس سنوات ونصف وذهب يعيش بعيدا عنها فى أحضان امرأة شقراء ، يعترف انه كان يحبها في زمن ما ، الآن .. الليلة أصبحت زوجته حين مرت صورتها فى فراشه اكتئب ولكنهم همسوا له يوما :

- لا بد من امرأة لنسيان أخرى .

ولكنه حاول ... حاول تناسى حياته الأخرى ، قتل خياله وأحرق ذكرياته كم أخذ يدها بين يديه ، كم نظر مليا فى عينيها باحثا عن البريق الذي أسره يوما ! كم حاول استعادة النشوة التي كانت في لمستها ! كل يوم منذ عاد يُذكر نفسه أنها عالية التى رفضت ابن الوشاحي الغنى من أجله هو الفقير المعدوم . يذكر نفسه باليوم الذى قالت واثقة" : أحبك يا عادل ... الدنيا تغيرت وسأتزوجك أنت حتى لو حاربت العالم كله . "تذكر كيف كان يهيم بها أمام الجميع مرفوع الرأس ، كيف كانت قصة حبهما على كل لسان ، كيف شعر برجولته ووسامته ، بقيمته وشخصيته ، كيف كان ينظر لنفسه فى المرأة قائلا : "عالية تحبني بصدق ، تحبنى لشخصى.".

حاول صادقا ، حاول مرات أن يتذكر ، كيف قال عنها إنها حبه الأبدى ، وأنها ضحت بالراحة والآلاف، ووقفت ضد القردة والأسرة والمجتمع من أجله، من أجله

هو .. كيف أن والده حين عرف بكل ذلك قال عنها إنها كنز لا يفنى ، وإنها تساوى حبة العين غلاء .

تذكر كل ذلك وهو ينظر في عينيها ، وكيف خفت البريق ؟

لمس يدها ... لا شئ ، انقطع التيار .

لم يتحرك فيه شئ ، لم يشعر بها تهتز كعادتها سابقا ، أصبحا جمادا ، ضاع ذلك الشئ السحرى الذى كان يربط بينهما

ولكنه حاول ... قلب معها ألبوم الصور ، أيام الكلية ، رحلة بور سعيد رحلة الأقصر وأسوان ، كانت مثالا للرشاقة والخفة والجمال ، بسمتها تملأ وجهها وبساطتها مثار إعجاب الجميع ، تذكر كيف كان ينتهز الثوانى للمس يدها ، الدقائق لاحتوائها وتقبيلها ، كيف يراها اليوم بدون معالم ؟ جسد مترهل ، صدر متهدل ، قوام غليظ وخصر أخفته الدهون ، خدود متورمة ورقبة منتفخة ، أنف مفلطح وعيون ميتة .

كيف يراها أمامه جثة هامدة ؟ !

ولكنه حاول ... بحث عن عالمه الذى كان ينعكس في عينيها ، وجدها لم تعد تنظر إلا للأرض ، نظرات مترددة مرتخية مرتجفة ، نظرات ضائعة حائرة تبحث عن شئ ما وتطلب الأمان

حاول ... حاول استعادة البسمة التى كانت كل سعادته ، لكنها لم تعد تبتسم .. يتأملها ؛ حيوان مذعور يشعر بالخطر ولا يطلب سوى الحياة ، يهزها ، مستسلمة كالأرض الطيبة ، مكسورة الجناح ، مهدومة الكرامة يسألها في حديقة الكازينو .

- ماذا تشربين ؟

ترد دون اكتراث :

- مثلك تماما .
- سأخذ عصير ليمون
- وأنا كذلك

ولو طلبت شايا لشربت الشاي ، قبل الرحيل كان يرى ذلك شيئا طبيعيا ، اليوم يراه عبطا وسذاجة ، مذلة وهواناً .

كيف أرسلوه للشقراء ليقع في أسرها ؟ !

ولماذا لم يخطف حبيبته ويهرب من هذا الجنون ؟ !

الجنون ... لكنه سائر الى الجنون لا محالة ، ها هو يبيع نفسه تسديدا لدينه وإرضاء لهذا الجمع الغريب ، يتأملهم ... أسرته وأسرتها جيرانه وجيرانها ، الزملاء والأصدقاء والمعارف هل من المعقول أن يكون " هؤلاء شعب واحد..".؟ أى شئ يجمع بين لابسي البذل "السوبر صن " والأحذية " الموكاسان " والقمصان الباريسية وربطات العنق الحريرية مع لابسى العمة والجلباب والقفطان والجبة واللاثة ؟ !أى شئ تستطيع أن تشارك فيه لابسات الملايات اللف السوداء بنات بلدها من لابسات المينى چيب والفساتين الضيقة والجيبات المحزقة ؟

أربعون عاما وهاهي الطبقات تتحدد أكثر وتبتعد كل في ركن من أركان الصالة..

ماذا فعلت الثورة لإذابة الطبقات وكل منها تنظر للأخرى بعجب وترقب ولكنه يريد إرضاء الجميع ، المينة كلها تقوده الى فراشها، ستنقلب نواميس الطبيعة إن لم يف بوعده وكم تغير وتبدل حتى أنه يرى ذلك العقد الأبدى عقيما وسخيفا .

منذ عودته والكل يسأل :

- متى ستتزوج ؟
- متى سنفرح بك ؟
- متى سنحزن عليك ؟

كلهم هنا يفرحون ، وهو الذي يدفع الثمن ، هو الذي يخسر كل شئ حتى نفسه ، ولكنه يقتل نفسه ... هذا أم ... يقتلها هي ..

كيف يقول لها ؟ كيف يقتلها ؟

كيف وكانت تبكى كلما رأته صارخة :

أنا عبدتك ... خدامتك ... وأنت رجلي ، بعلى ، سبعى ، أبوس إيدك ورجلك .. شوف شقة .

وكيف وكلما التقى بها قالت :

والحل يا عادل ؟

كان يود أن يتركها ويذهب ، كان ينظر إليها كأنه يراها للمرة الأولى ويتعجب أنها زوجته ، ولكنه يبقى ... ويستمع إليها

وتقول بفخر بعد عودتى من البعثة:

- لدى ألفان من المدخرات

وتسأل :

- هل زاد راتبك .

كان يتركها مكانها ويسبح في مياه أخرى ، حمام سباحة أزرق اللون تندفع فيه حورية شقراء تعلمه كيف يتنفس تحت الماء ، يهز رأسه تأكيدا لكلامها ، كان متفقا معها على كل شئ ، سمعها تتكلم مرارا عن شقة شبرا ، تنتقد شقة بولاق ، تستبعد شقة المطرية . يوافق على أن تأخذ راتبه ، تأخذه ثم ترد له بعضه ، يوافق على أن يكف عن شراء الفاكهة المكلفة ، يكتفى بالبرتقال حين يعود لأهله ، يكف عن شراء الفستق والبندق لأمها القردة ، يسمعها ترسم الخطط ، ترص الموبيليا وتملأ بها الحجرات ، تحدد أسماء المعازيم، أنواع المأكولات والجاتوهات ، يشتم تعليمات القردة ، أوامرها ، ينظر إليها تتنطط بين المدعوين ، فرح يجنن ، بنتها تتزوج فى أكبر صالات الفندق المتعدد النجوم ، تهمس لأختها المنفوشة كالطاووس " عقبال هدى " ويرد الطاووس " : عقبال أحمد وطارق ".

في الركن بعيدا يرى أحمد وطارق بجوار أبيهما الجمل كسيحا على

مقعده : سمع الأب يقول لأبنيه : " هل رأيتما ... زوج أختكما رجل ولا كل الرجال ." .

يصمت أحمد مداريا عاره بعد فسخ خطوبته لقلة حيلته ، يرد علاء بكل وقاحة :

- من أين أتى بكل هذا ؟ !فرح كهذا يساوى مرتبه ثلاث سنوات

يرى مسحة الحزن تكسو وجهه ، هو الذى تعدى الخامسة والثلاثين ، كم هو مُعجب به بعد أن هجم على حماته محاولا خنقها عندما طالبته بفسخ خطوبة ابنتها ورفضت أن يتزوجها فى حجرة عالية التي ستفرغ برحيلها الى شقة الهرم ، عشر سنوات والمسكين يعمل مدرسا للتربية الرياضية صباحا ومدربا في النوادى الخاصة ليلا دون أن يتمكن من ادخار أى شئ ، يرى الأب يتجاهل لمزات أبنه ، كل شي يهون في سبيل زواج ابنته ، حتى لو علم أنه سطا على البنك الأهلى سيغفر له ، هو الذي ظن أنه سيفارق الحياة قبل أن يتزوج أحد أبنائه ....

ورأى عالية تقفز من الفرح صائحة

- الدكتور عبد ربه ...

لم يصدق أنه جاء بنفسه ، رأى نظرة انتصار في عيني عالية تريد أن تقول له .. هل رأيت ... أنت تبالغ في كل شئ . ".

ولكنه لم يمكث طويلا ، شد على يده مهنئا ودار في الصالة العامرة بأساتذة الكلية واختفى . بحث عنه في كل مكان ، كان لا بد أن يذهب ، مع من سيتحدث ؟ ! عن أى شئ سيتكلم ؟ إنه لا يعرف سوى العلم والدراسة والخدمة العامة ، الصالة تعج بأصحاب المصالح والصفقات والخبطات والهبش والنبش ، ماذا يستطيع أن يقول له وقد تناسى مشاريعه العظيمة وانغمس محموما في صراع المصالح ؟ !كلما قابله في ردهات الكلية لمح نظرة الأسف والتألم فى عينيه ، خيبة الأمل في كلماته ، كأنه يقول له » : خسارة ... يا للخسارة. ".

ولكنه قاوم ... لم يهتم بنظرات القردة المريبة المتسائلة عن وزنه في سوق المال ، كان يتمنى الهجوم عليها لخنقها كما فعل ابنها مع حماته : لم يهتم ، لم يهتم بصراخ أبنتها تحثه على الشقة :

- والمذكرة ... كم طالبا لديك ... بكم ستبيع المذكرة ؟

يتذكر أنه واجهها بشجاعة :

- هل جننت ... أنا أبيع مذكرات ؟ !

أثارته أكثر ، ساخرة متهكمة قالت بشك :

- ألم تقل أنك أستاذ المادة ؟ !

وتابعت بتهكم اكثر :-

- وهل هناك أستاذ جامعى لا يبيع مذكرات ؟!!

ويتذكر جيدا أنه قال لها إن الأستاذ عبد ربه لا يبيع مذكرات ، ولا يملأ جيوبه بنقود الطلبة المساكين ، وردد لها آراءه ... إن الدراسة الجامعية هى بحث وتنقيب فى بطون الكتب وليست مقررات يحفظها الطلبة ويلتزمون بها كطلبة المدارس ، بل إنه تقدم بطلب في مجلس الكلية بتغيير نظام الدراسة ، وأنه صرخ رافضا .

- لا ... لا مذكرات ... هذا مستحيل .

صرخت بدورها :

- والحل ؟ !

أمامها كان في الوحل ، على الأرض هاويا يتمرغ ، تقص أجنحته وتعلق فى قدميه الأثقال ، دائما على خشبة الواقع تصلبه ولم يدر ماذا يفعل أمام دموعها ، أمام صوتها الذي يسرسع دائما :

- يا عادل ... أنت مثالى أكثر من اللازم، كف عن أحلامك الطفولية . تعامل مع الحياة كرجل ، أنت لن تغير شيئا من الكون

ماذا كان يستطيع حين تنفجر باكية وتوجعه قائلة :

- كيف تريد حل مشاكل مصر كلها وأنت غير قادر على حل مشكلتك ؟ !

وتتشنج قائلة باستضعاف:

- فكر قليلا ... خمسة آلاف طالب ... اضرب خمسة آلاف في ثلاث جنيهات ، انحلت مشكلة الشقة

حين كان يفيق من بكائها ، كان مستعداً لعمل أي شئ حتى تختفى من وجوده .

كان يقول لنفسه مراراً : " أصبحت عدوى ."

ولكنه قاوم، يتذكر أنه قال لها

- لدى رسالة ... رسالة لا بد أن أتمها .

وتنطلق دموعها ، تنهار عليه صواريخها : قبلها

- اسمع ... أنت لا تعيش على الأرض ، أنت لم ولن تفهم أى شئ في الحياة ، مصر التى فى خاطرك قد تغيرت ، رسالتك الفذة التي تعتقد أنها ستقلب الاقتصاد المصرى لا فائدة منها ، لا قيمة لها ... الدولة ستبيع شركات القطاع العام للأفراد ، الاتحاد السوفيتي نفسه يبيع جيوشه ويتحول الى الاقتصاد الحر ، الصين تقيم المناطق الحرة وتشجع الشركات الغربية وتفتح لها الأبواب ... أفق من غفلتك هذه

وحين يسكت تتابع صراخها :

- العالم يتغير ، السنوات تمر وأنت مازلت في مكانك تحلم .

ولكنه قاوم، يتذكر انه صرخ هو الآخر قائلا لها :

- الاشتراكية لن تنهار أبدا ... الاشتراكية هى مستقبل البشرية .

قال ذلك ... نعم ، ولكنها ردت بهدوء :

- على عينى ورأسى ... ومستقبلنا نحن ؟ !عام بعد عودتك بالدكتوراة ولم تفعل شيئا ، عام وأنت تنتظر ، ماذا فعلوا بأطروحتك ؟ هل شكلوا اللجان والندوات ؟ هل انعقد مجلس الشورى أو النواب أو حتى الشيوخ لمناقشة خططك الجهنمية وبرنامجك السحرى فى الإدارة والمحاسبة ؟ بل هل سألك أو تساءل أحدهم عما فعلت ، عما استنتجت عما استنبطت ؟ !!

لم يكن يدرك ماذا يقول وكيف يرد ، وهو نفسه يشعر بصدق كل كلامها ، كانت يده تمتد بتلقائية لتلمس حقيبته الجلدية التي تحتوى أوراقه ... أوراقه الخطيرة التى قضى خمسة أعوام في تحضيرها ، والتي يدهسها العامة دون رحمة كل صباح ومساء في وسائل المواصلات، أوراقه التي من أجلها عاد الى مصر ، من أجلها ترك قلبه وأمريكا ، وآلاف الدولارات ... ولكنه حاول ... ذكرها بقيمته علها تصبر كان

يقول لها :

- هل تعرفين أننى رفضت آلاف الدولارات لأبقى فى أمريكا ؟

لم ترد ، لم تكف عن البكاء ، تابع :

- لقد عدت لأرد الدين ... هل تفهمين ... دين المجتمع

وانفجرت مرارا في وجهه :

- أنا التي انتظرتك سنوات ، أنا ... أنا التي تركت كل شئ وعاديت كل من أعرف حباً لك وانتظاراً لقدومك ... ألست مدينا لي بشئ ؟ !!

وكانت تصرخ دون أن تقولها :

- متى ترد دينك لي يا عادل ؟ !

ها هو يرد دينه للجميع ، يتزوج عالية ويتجرع كأس نجاحه، يشربون شربات دمائه المسممة ، ينضم للمدينة ، يرتفع بسقوطه ، يؤمن اتصالاته ، يُحبك خيوط شباكه، يغرق فى مشاكله الشخصية ، يبدو له بعيدا ذلك اليوم الذى صرخ فيه أمامها :

- إن لم أهتم بمشاكل مصر ، إن لم يهتم غيرى ، من سيهتم.

وردد لها يوما كلمات " رايت " دون أن يدرى :

البرجوازى المصرى لا يهتم إلا بالصعود والتسلق.

ها هو يصعد ، مدير الكلية نفسه يأتى مهنئا ، رجال الحزب والأسماء المشهورة يهنئون ، الكل راضٍ عنه ، الكل يشجعه ، يبت في حيرة ، ولكنها على حق ... هل سيحل مشاكل مصر إن لم يبع مذكرات ؟

وحين شد الجوهرى على يده مهنئا قال:

- تقييمك لشركة السياحة ممتاز ... مبروك ...

ولكنه يعرف أنه سيطلب منه تخفيض قيمتها الدفترية ، إن لم يخفضها هو سيخفضها غيره، إن لم تدخل الآلاف جيبه ستدخل جيب غيره ، إن لم يشارك

سيشارك غيره ، في كل الحالات ستباع شركات الدولة ، ثم على أى شئ يتباكى ؟ !! أين هي تلك الثورة التي كان يفتخر بأنه ابن لها؟ !

وبعد عودته من البعثة همس له البسيونى :

- الأربعون ألفا التى عرضوها عليك هناك فى سنة تستطيع هنا كسبها في شهر واحد

ورد عليه غير مصدق :

- هذا جنون ...

ويراه وسط شلة الدكاترة يقهقه ويمسح صلعته بمنديل أبيض ، رفعت البسيونى الذى أعد رسالة الماجستير عن دور الدولار والسوق السوداء في تمويل المخدرات.

وكانت عالية قد سخرت منه فى حديقة الكازينو قائلة ناصحة :

- لماذا لا تفعل مثل رفعت ؟ أليس دفعتك ؟ ! الآن يركب المرسيدس ويسكن فى شقة تمليك .

ويتذكر أنه قال له متوجسا :

- كم تغيرت يا رفعت !!

وثار عليه رفعت متضايقا

- يا عادل ... نحن موظفون ... هذه هي سياسة الحكومة واتجاهاتها سياستها العليا ... ماذا نفهم نحن فى السياسة ؟ من قال لك إن السوق السوداء تضر بالاقتصاد الوطنى ؟ البنوك الرسمية تساعد تجار العملة .. لا تصدق ... تعال معى لترى بنفسك كيف تتم الصفقات في مكاتب المديرين .

وقال :

- بيع القطاع يخدم مصالح البلد ، الشركات تخسر والموظفون يغتنون من ورائها

وما معنى الوطنية ؟ !

وكيف يمسك بالشمس وهي الأعلى ؟ !!

ولماذا كل هذا القلق ؟ من هو أكثر وطنية منه ؟ ألا يشارك في اللجان والمؤتمرات ؟ ألا تدعوه الحكومة نفسها لإيجاد الحلول ؟

ولكنه يعرف أن كل شئ نسبى ، ويعرف أيضا أنه لم يستسلم بسهولة ، وأن رفعت الذي انطلق أمامه بمسافات بعيدة انهار يوما وقال :

- هذا أو الجنون .

ورد على نفسه ثائرا :

- بل هو الجنون في كل الحالات.

ولكنه يعرف مشكلة رفعت البسيونى ، يعرف أنه يدمر نفسه في سباق النفوذ والمال ، يدمر نفسه ولن يحصل مطلقا على حبيبته التي راها تتزوج أمام عينيه من غنى ، يدمر نفسه ليمسح إهانة العمر حين قال له والدها ساخرا وهو يطرده من منزله حين تقدم لخطبتها :

- يا ابنى ... إياك أن تعتقد أن الدكتوراه ستحل محل الباشوية .

يومها صرخ

- الدكتوراه لا ... ربما العلم .

ومن يومها تحول رفعت الثائر من محترف لكتابة مجلات الحائط ومهيج المظاهرات الى خنزير صغير يكبر كل يوم .

وأصبح يردد :

- العلم قوة تجلب النفوذ ، النفوذ يجلب المال ، والمال يشترى كل شيء . حتى الدكتوراه والباشوية .

ثم يصرخ:

- هل فهمت ... العلم هو الثروة.

قالت له في الحديقة المطلة على النيل :

- رفعت ليس أفضل منك في شئ.

وقال له رفعت بإصرار :

- لا بد أن أصبح مليونيرا قبل الأربعين

***

ولكنه لم يعد يعرف أحداً ، لم يعد يعرف نفسه ، ولا بد أن تنتهى هذه المهزلة التى تجعل من عالية " عروسة حلوة وزينة ووردة من جوه جنينة ، وتجعل منه "عريس عترة وحلاوته نقاوة" .. ينظر الى عروسه ، يبحث عن الوردة ، لا يرى إلا البثور وقد ظهرت بوضوح على وجهها وجبهتها . ساحت المساحيق واختلطت وصنعت منها مسخا مشوها مخيفا ، رآها تبتلع قطع الجاتوه بشراهة غريبة ، شهور بعد الزواج وتصبح كشوال بطاطس منتفخ ، تستقبله عند عودته مساء بشعر منكوش وجلباب مخطط عليه صلصة الطماطم ، تندس بجواره في الفراش تفوح منها رائحة البصل والثوم ، يراها تمصمص بين كل كلمة وأخرى كامرأة رآها فى حديقة الكازينو تشهق باكية:

- ليه العذاب ده كله ؟ .. يا ربي ... أنا عملت ايه ؟ !!

وفهم أنها تريد أن تقول له :" ماما كانت على حق" ، وأنها تقول له "ليتني تزوجت ابن الوشاحي ." وتقول له: " يا حظي العاثر ."

نظر إليها بجانبه على كرسى العرش ، أصبحت زوجته ، أصبحت شريكته فى شئ غامض لا يدرى كنهه ، نظرات الحقد والغل والغضب التي ترتسم على وجهها منذ عودته مازالت تطل حتى في ليلة عرسها ، تطل من بعيد ولكنها هنا ، يراها بوضوح خلف ابتسامتها الصفراء الباهتة المفتعلة التى تجاهد فى رسمها ، نوع غريب من العداء والبغض فى تصرفاتها وحركاتها ، تذكر البؤس الذى كان يطفح في كلماتها ، الاستجداء فى بكائها وفى صمتها ، الشفقه التى تملكته نحوها .

لكنه يعرف أن الشفقة حين تأتى يهرب الحب.

حب ؟ كيف يستطيع حب مخلوقة مثلها ؟

سألها فجأة حين خفت ضجة الأغانى الساذجة الفجة وهدأ نعيب الغربان .

عالية ... هل مازلت تحبينني ؟

شهقت ، نظرت متفحصة متسائلة إن لم يكن قد جن

قالت كأنها تحدث طفلا :

- ماذا تقصد ؟ !!

- هل تحبينني ؟

- طبعا ... أنا زوجتك .
- أقصد ... كل هذه السنوات الطويلة ... ألم يتغير فيك شيئا ؟
- ماذا تريد أن تغير ؟

وفى الحديقة كانت تبكي وتولول

- يا للمصيبة ... يا للمصيبة هل نسيت أننى زوجتك ؟ هل نسيت أنني أنتظرك هنا منذ سنوات ، أحارب العالم كله من أجلك ، والآن تسألني إن كنت أحبك .

قال لها :

- إذا ... مازلت تحبينني .

ضحكت وهي تشرب الكوكاكولا المثلجة وتتكرع قائلة :

- إيه ... يا عريس ... كفاية
- سأل بجدية متابعا :

شعورك نحوى ... ألم يتغير ؟ !

ردت بدهشة :

- أنت شربت واللا إيه ؟ فوق يا عادل ...

ولكنه لِم يعد يعرفها ...

وكيف قَبل العقد الابدى وهو يتغير كل يوم ؟

وكيف يعود الحب وهذا الخواء والصقيع داخله يبعدها عنه آلاف الأميال ؟ هذه

البلادة التى تعتريه وتتملك منه !

ثقل الوجود كله يحط فوق رأسه ، كيف يتزوجها وقد أصبح لا يطيق رؤيتها ؟ أى حياة بقيت له وقد عاش حياته هناك ؟

لماذا لا يقول لها ؟ لماذا لا يقف على الكرسى ويواجه الجميع بكل شئ ثم يلقى بنفسه من النافذة وراءه ليسقط فى النيل تبتلعه مياهه وتريحه من كل هذا الجنون ؟ !

لماذا لا ينهى كل شئ ؟

ولكنه يعرف أنه جبان ... يترك الأشياء تمضى في طريقها ، يعيش الحياة متفرجاً سلبياً ، يعود إليه صوت " رايت" .

- أنت لا تعرف كيف تتخذ القرار .

تشجع وقال لها بعد أن تخلصت من إحدى قريباتها :

- سألتك كل هذه الأسئلة لأن الحب كباقى الأشياء يموت .

واجه النظرة البلهاء ، تابع مسترسلاً :

- الحب كباقى المخلوقات يموت مرة واحدة ، مامات لن يعود ، البقاء للجماد فقط ... الجماد فقط لا يتغير ، الأزلية حلم ، الخلود كذبة ، الدوام وهم ...

قالت توقفه :

- كلنا سنموت يا عادل ... انسى هذه الأشياء ... اليوم يوم فرحك وتأمل حوله متعجبا ... قال لها مشيرا الى خليط المدعوين العجيب :
- لم أعد أعرف مصر

وكان يود القول :

- أعد أعرفك يا عالية

قالت متأكدة مما تقول :

- مصر لم تتغير ، مصر هى مصر ، أنت الذى تغيرت

قال :

- لك حق ... كل شئ في تغير وتبدل مستمر دائم

ولكنه قال لنفسه مصعوقا:

" هي ... لكنها هي لم تتغير ، بقيت كما هى ، أفكارها ، عاداتها ، تقاليدها ، كل شئ بقى كما هو ، العالم يتحول ويتبدل من حولها وهي على حالها ، أفكارها لا تتحمل الخلط والتغيير ، كالفلاح المصرى عبر آلاف السنوات ، حافي القدم، يعيش على البتاو والجبن القريش والمش بالدود ، هو ... هو الفلاح المنحوت على جدار معابد الفراعنة .

لماذا يظن أنها تكرهه ؟ إنها لا تكرهه لأنها لم تحبه أبدا ، إنها لا تعرف الحب ، بل إنها بدون عواطف ومشاعر ، فقط تريد أن ترضى العادات والتقاليد وتفعل مثل غيرها ، مثل من سبقوها وإن كانت تغلف كل ذلك فى ثوب يناسب التيار ، ضربوا الأنوثة فيها منذ صغرها ، لم تعد سوى مسخ يبحث لنفسه عن دور في الطبيعة ، كيف تحملت كل سنوات الحرمان وهو يلتاع بالشوق للأنثى الحقة التي مارس معها الحياة ؟

وماذا تبقى لها من الأنوثة سوى العُقد وبثور الحرمان ؟

وجاء طيفها صافيا يلملم الشعرات الشقراء ويعيدها مكانها وهي - تقول بكبرياء وثقة:

" لا يهمنى أن تذهب الآن أو غداً يا حبيبي ... طريقنا كان قصيرا ولكن ملأ حياتي بالانفعالات والمشاعر الصادقة ، لدى من ذكريات حبك ما يكفى أعمارا .".

وجاءته كلمات " رايت "

"المصرى ... إنه خلق للموت وليس للحياة ، إنه يعبد الموت والخلود . أثاره آثار موتى، حياته موت إكلينيكى ، يقاوم الزمن بقلة الحركة ، ثورته سكون ، اضرابه استسلام ، يوارى عجزه بقلة الاهتمام ، يوارى ضعفه بعنجهية كاذبة ، يخفى عبوديته بكبرياء زائف ، يشرب الذل منذ فجر الحضارة بكأس الانتقام فى دنيا أخرى.".

وسط الضجة نظر اليها مستغربا ، تعجب ... كيف يراها في ثوب المذلة ، هى

التى تختزن حكمة الفراعنة والعرب، الأقباط والمسلمين ، الشرقيين والغربيين ، هى المتعلمة بنت الجاهلة ، التي تعيش في آسيا وإفريقيا ، وتحلم بأوربا وأمريكا ، هى التى مركز العالم ، وعليها تقع وتنهال كل ضغوط الكون .

كيف يراها قيمة بالية منهارة ؟

كيف يراها أمامه جثة هامدة ؟

أين أحلامها ... أين شبابها ... أين وثبتها ؟ !!

أين انطلاقها ... أين هيامها ... أين كبرياؤها ؟ !!

وكيف يموت كل ذلك ؟

وكيف تموت الحياة قبل مجئ الموت ؟

كيف والأعرابي من أجدادها أمات الموت نفسه ؟ !!

***

ووسط الضجة والهرج اتضحت المعالم أمامه ، ثقل الوجود وتلبدت أحساساته ، أطلت الحقيقة بوجهها السافر فتبخرت ثورة الشباب ، الطهارة لا وجود لها الا فى عقله الصبى .. الوطنية شعارات زائفة براقة يفصلونها حسب أحوال السوق ، الزبائن كثيرة والعملة خضراء وارقة ، المعانى الغالية يسير وراءها ألف مومس وألف قواد ، الكل يسير وراء

الإله الأوحد : المصلحة ... والكل يجرى وراء الجنة : النقود .

وفى نهاية الليل تثقل الرءوس وتتغير لهجات الكلام ، الكئوس تفعل سحرها ويتحرر اللسان من لغة النفاق ، يأخذه كل منهم ويهمس بكلمة :

- المستقبل أمامك ... لا تهتم بكلام الجهلة والسفهاء ...
- يا عادل ... الطريق طويل ويحتاج لمحطات راحة ... الكذب هو الراحة .
- يا عادل ... يا ابنى ... الرجل يتزوج ثم يفعل ما يحلو له .
- يا عادل ... يا دكتور ... يا دكتور عادل ... يا دكتور ...

ويعجب لاهتمامهم الغريب ، يرى نفسه سائرا في طريق الزفة وعالية تسير بجواره، كلهم يراقبونه بدقة ، يبتسمون له راضين عنه يتذكر البسمة الساخرة التى كانت ترتسم على الوجوه حين يتكلم عن أطروحته بحماس ، نظرة التشفى وكل شئ يسير عكس إرادته صوت البسيوني ينصحه :

- لا تضيع مستقبلك ... انسى الدكتوراه واسبح مع التيار ، ونصيحته :
- اجعل الجوهرى منارك ... لن تخيب ...

وحين دخل على الجوهرى صاح في لهجة تمثيلية

- يا دكتور عادل ... أنت تساوى وزنك ذهبا ... لو كنت أمريكيا أو أوربيا

لحصلت على آلاف الدولارات راتبا شهريا ، هذه المكافات هي حق لك بل إنك تستحق أكثر من ذلك ... الأيام قادمة .. أنت تستحق أضعاف ذلك ... سترى ....

ولكنه الليلة يجب أن ينسى كل شئ ... كان يجب أن يدفن أوراقه ويخنق مشروعاته وخططه الى الأبد ... اليوم مصيبته أكبر إنه يبيع نفسه ، يبيع جسده

وهل الدعارة الجسدية تؤلم ؟

لكنه تعود على الدعارة الفكرية ، هل هناك شئ أصعب وأقسى من الدعارة الفكرية ؟ !

ولكن اللعنة على كل شئ ... من هو حتى يقاوم هذا التيار الجارف ؟ لعنة الله على الدكتور عبد ربه وعلى مشروعاته ، بل اللعنة على مصلحة الضرائب التى يريد ملء خزانتها ، على المحاسب الاجباري الذي يريد فرضه على كل من يمارس نشاطا، ماله وكل ذلك ؟ مرحبا بالتسيب والتواطؤ والتهرب ، هو غارق فى المستنقع ... لا محالة . سنوات ويمتلك مكتبه الخاص للمحاسبة ، تماما مثل الجوهري، سيعقد الصفقات بأسمه ، العمولات ستصب فى جيبه ، سيبيع كل شيء ، حتى جسده، ألم تفسد الرأس ؟ !ألا يبدأ العفن دائما من الرأس ؟ !! بل إنه يرى كل ذلك بوضوح ... وتخلى عن تقضيبه وابتسم لهم في فرحة شيطانية غريبة عليه ، قال لنفسه : "سيكون لى مكتب فخم وسكرتيرة تتحدث الانجليزية ، و ... ستكون شقراء

***

عندما حطت به الزفة فى حجرة الفندق عاد الى نفسه ، وجد نفسه وحيدا وسط الحجرة الفسيحة ، ثم شعر بوجودها الانثوى غير بعيد عنه امتدت قرون استشعاره ، شعر بالخطر القادم المحيط به داخل هذه الجدران التي تفصلهما عن العالم ، تنبه أنه سيخوض آخر معاركه وكان قد أعد كل شئ .

أغرق الحجرة فى ظلام دامس عميق ، التقى على السرير بعد أن أفرغ نصف زجاجة النبيذ في جوفه ، حين شعر بها تخرج من دورة المياه امتدت يده لتضع الابرة فوق الاسطوانة التي كانت تدور منتظرة انطلق الصوت المشروخ المُفعم بالحسرة والدفء يملأ الحجرة ...

سأتعجب طوال عمرى ... كيف تركتك ترحل

لم يتغير شئ في حياتي .. لكن... لا أعرف إلا شيئا واحدا : اذا أبدا ... التقيت بك ثانية .

هذه المرة سيكون حظنا أسعد ..

هذه المرة لن نقول وداعا ..

بل .. الى اللقاء ..

إذا .. أبدا .. التقيت بك ثانية...

تدغدغ الكلمات أحساساته ، يتناسى ماهية الجسد الممد بجواره ، يرحل الى جنته المفقودة ، حجرة فسيحة تحيط بها الغابات يحيطها بذراعه ، يحتضنها فرحا بعودة سعادته ، رغبته فطرية غريزية حقيقية ، نيرانه مشتعلة مستعرة ، متوهجة ، كانت مستلقية لا تتحرك ، مصعوقة لا تدرى ماذا تفعل ، وكان هو فى عالم آخر ، عالم انطبعت كلماته وروائحه على جدران روحه ، يهمرها بالقبلات كعادته قائلا بالانجليزية :

- أحبك ... أحبك ...

ومن بعيد ... بعيد ، وصله صوتها وهى تشهق بالعربية :

- أخيرا ... أخيرا ... يا عادل ... لا اصدق أننا أخيرا...

لم يسمع بقية جملتها ، لم يفهم اللغة ، كان الصوت متغيرا ، هبط من سمائه ، تبخرت الخمور من رأسه ، انطفأت جذوته ، أدرك أن الرائحة مغايرة ، أنها باردة كالثلج ، أنها غير متجاوبة ، بل أنها غريبة عليه ... فى الظلام عادت ملامحها إلى مخيلته ، وجهها الملئ بالبثور يمسح شفتيه بظهر يده متقذذا غير فاهم ما يحدث له ، يشعر بجسده يهوى به فى بئر مليئة بالجرذان ، وأن البثور تغطى بشرته ، الدود الطويل الأبيض يزحف برأسه المدورة خارجا من الغطاء .. يصرخ هاربا من الفراش ، تصطدم رأسه بالأرض فى وجع ، يستتيقظ وسط تقريعات وضحكات إخوته .

وقبل أن يستيقظ تماما يلمحها تضحك ساخرة منه ، تتمرغ أمامه في أحضان الآخر ، تلملم شعراتها الشقراء قائلة :

- الحب أقوى من العقود والمواثيق ... يا حبيبي

وحين استيقظ تماما قال لنفسه :

- سأجن ... سأجن قبل أن تظهر النتيجة .

***

التمثال .... والنخلة

انتصب التمثال شامخا...

كان رمزا للحرية ...

وكانت الحرية أمرأة .

يتجاهل همساتهم ، يتناسى لمزاتهم، يغمض عينيه متمنيا الرحيل ، فقط عدة سنوات للأمام ، شوقه للمعرفة يطغى على كل شئ ويتمكن منه وينسيه كل خوف من النتيجة ، النجاح مضمون ، بل إن نجاحه أصبح فشله ، تفوقه أصبح انهياره ، خوفه كله من نفسه ، من التغير ، تغيره المحتوم المرتقب ، من مستر " رايت " وكيف الهروب منه ؟ !!

حين رحل وجد نفسه متشبثا بنفس النافذة الصغيرة ، الهواء الساخن يصله عبر قضبانها ، يتأمل أصابعه القذرة الهزيلة ، ذراعه النحيف الضامر ، عروقه البارزة المنتفخة ، جسده المهدود المقيد في الزي الأبيض .. يترك جسده الطرى اللين ينهار على الحشية الملقاة على الأرض ، يقاوم مفعول الأدوية بإرادة صلبة ، كيف تكون هذه نهايته ؟ كيف ينتهى دائما الى نفس المكان ؟

يهرب من المكان ، مازال عقله حرا ، لم يتمكنوا منه بعد ، لم يعد لديه اداة أخرى ، لا بد أن يكشف السر ، لا بد أن يحل اللغز يثبت نظراته الى السقف ، يتناسى صخب المجانين حوله ، يفكر بهدوء ، يسترجع كل ما حدث ، من وراء كل ذلك ؟

يتعجب حين يرى صورة " رايت " تقفز الى ذهنه ، يا للداهية

كيف لم يفكر فيه من قبل ؟ !!أهو الذى دبر كل شئ !! ومن غيره ؟ !! ضحك من سذاجته ، قال لنفسه :

- لكن الصداقة مستحيلة بيننا .

يراه بجانبه فى عربة تخترق شوارع القاهرة، ماذا يفعل المأفون في القاهرة ؟ ! العربة تتجه نحو الجامعة ، يدخلان القاعة الفسيحة المليئة بالشيوخ والعلماء ، يصعد كل منهم على المنصة ، يخرج ورقة يضع نظارته الطبية السميكة على أنفه ، ويتكلم وسط فلاشات الكاميرات وأضواء التليفزيون المسلطة على المنصة .

كلهم يتكلمون عن أحمد وعلاء !!

حين صعد " رايت " الى المنصة طالب بقصف رقبتهم ، واتهمهم بالتعصب والتزمت ، ومحاولة إلقاء مصر فى غياهب الماضى وظلام العصور الوسطى ، وحين انتهى من الكلام غادر القاعة الى دورة المياه . تبعه ، راه يدس بمظروف متخم

بالأوراق المالية الخضراء في يد علاء .

ولكنه لم يفهمه أبداً ... دائما يجده غامضا مسربلا بالأسرار ، بعد المؤتمر تخلص من الصحفيين واتجه نحوه قائلا :

- ألن ترينى تمثال النهضة ؟ ! يا دكتور عادل ؟

حين تحركت بهم السيارة طلب من السائق أن يتجه للجيزة ثم قال له:

- دعنى أرى شوارع القاهرة ... لم أرها منذ سنوات ، هل تغيرت القاهرة كثيرا يا دكتور عادل ؟

رد عليه بدهشة

- لماذا تصر على مناداتى بالدكتور عادل ؟ يكفى " عادل " كما تعودت ..

قال بهدوئه المعتاد :

- هناك الانسان لا يحتاج لألقاب ... هنا بدون ألقاب ... الانسان لا شئ ، نكرة

يستسلم لهدهدة العربة الحنون ، هزاتها المتتابعة غير المنتظمة تنقله الى القارب الصغير الذى كان يقفز بهما فوق مياه الأطلنطى دائرا حول تمثال الحرية ، يتذكر هذا اليوم جيدا ، كان يوما شديد الحرارة قليل الهواء ، كان القارب يقفز فوق حفر المياه غير المنتهية ، والمطبات تصعد بالعربة وتهبط بها باستمرار

يلمح رايت يتفحص الوجوه السائرة ، العربات التي تتلوى كالأفاعي على الأسفلت السائح ، العشرات من الأجساد المتعلقة بأبواب الأتوبيسات ، الباعة على الرصيف ، يغرق فى مناقشاته معه ، ينتظر أن يسخر منه قائلا:

"هل هذا هو الشرق السعيد ؟"

حين وقفت العربة أمام تمثال النهضة هاله ما رأى ... نظر الى "رايت " فوجده يتأمل بهدوء غريب ، سمعه يقول بصوت رزين لا انفعال فيه :

- إذا ... أنت تفضل هذا التمثال على تمثال الحرية ؟

ينظر الى التمثال مرة أخرى ... ولكنه حقاً جن ؛ القضبان التي كانت تاجا فوق

رأسه امتدت حوله من جميع الجهات وأصبحت سجنا ، الشعلة في يده تحولت الى قنبلة ، الكتاب انقلب جنزيرا ، المرأة التي تمتلئ صحة وعافية أضحت كومة آدمية مُهملة مُهيضة ، البسمة الغامضة المليئة بالوعود والأسرار غدت عبوس جاهم حزين، العينان المشبعتان بحب الحياة كستهما برودة الموت ، الجبهة الأبية المرتفعة غطتها طرحة العار ، الجسد الممشوق الممتد المنتصب على القاعدة تكوم على الأرض في ذل ومهانة ، الرشاقة والخفة اختفتا وسط انتفاخات من الأمام وتورمات من الخلف

كان التمثال ملفوفا بالسواد

وخيل اليه أن الأكفان تتحرك وسط الحياة ..

صرخ :

- غير معقول ... غير معقول

حين اقترب من التمثال أكثر ، رأى وجهها السمح المنكسر . كان وجه أمه الحبيب ، على القاعدة داخل قضبان السجن أطفال لا عدد لهم كلهم يتقاتلون للتقارب من أمهم يتمسكون بتلاليب ملاءتها السوداء وهى تنظر للأرض فى انكسار بعيون خفت بريقها ووجه ضاع روحه .. فوق الجميع انتشر الذباب سعيدا بقذارتهم ، الناموس يزن بصوت مرتفع صاعدا هابطا يمتص دماءهم .

فوق القارب سخر من التمثال قائلا :

- وكيف تكون الحرية امرأة ؟

نظر يومها " رايت " نحوه بدهشة قائلا :

- ولكن المرأة هي الحياة نفسها يا رجل .

***

وحين عادت العربة للتحرك خيل اليه أنها انتقلت الى شوارع" نيويورك " فى ذلك اليوم الصيفى كان " رايت " يتهادى بعربته وسط الحدائق وهو يستمع للمذياع ينقل اليه صوت " جون دنفر " الأخاذ ، كان المغنى سعيدا بالعودة للأسرة بعد طول غياب، فرح برائحة العشاء فى الفرن ، بينما هو يبحلق فى الفتيات المستلقيات

بالمايوهات في الحدائق يستقبلن الشمس على أجسادهن فى سرور وهناء ، الشورتات الساخنة والصدور العارية تدير رأسه فى جميع الاتجاهات ، حوله الضحكة والسعادة في كل مكان.

وكان " رايت " قد طلب من السائق التوغل فى المدينة ، خيل اليه أن الشمس ستسقط من فلكها وتحط فوق سقف العربة ، إن المدينة تحولت الى وحش كاسر تأكل أبناءها .

من النافذة شاهد النسوة ، أشباح سوداء تتحرك بثقل الأفيال أجساد ربعة منتفخة يخفى السواد معالمها ، والرجال يسيرون وفي أيديهم أسواط طويلة ، يفرقون الرجال عن النساء ، يجلدون الفتيات التي تظهر وجوههن ، يصرخون فى الأبواق بإخفاء عورة الحياة ، بقتل الطبيعة .

وحين تعبت عينيه من متابعة النهود البارزة و الظهور العارية صرخ :

- الوحوش ملأت الشوارع

سأله " رايت "

- فيلم جديد !!

ضحك قائلا :

- كل هذه الفتيات العاريات .
- ماذا تقصد يا رجل ؟
- كل هذه السيقان والارداف المكشوفة ، الصدور والبطون العارية ، كيف يتحمل الرجال كل ذلك ؟

أغلق يومها " رايت " المذياع وقال مندهشا :

- أربع سنوات ولم تتغير ، حالتك تقلقني ، أعتقد أن المسألة مسألة تربية قبل كل شئ، يا رجل ... المرأة مخلوق مثلك تماما ، لها حق الحياة والتمتع بها كالرجل تماماً ، لماذا تراها دائما كشئ ... كشئ جنسى ؟ !!

رد متأكدا كعادته :

- أنظر ... انظر حولك ... ألا يثير كل هذا غرائزك ؟

رد عليه بسخرية :

- الغرائز في رأسك يا رجل ... المرأة هي المرأة ، تعرت أم تحجبت الفرق ، كل الفرق فى نظرتك لها ، فى احترامك لها كأنسانة تسعد نفسها كما تريد ، ألا تتذوق أنت وتتهندم قبل أن تخرج ؟ ألا تحب أن ينظر إليك الآخرون بإعجاب ؟ الملابس يا رجل ما هي إلا انعكاس لما نكنه من حب أو كراهية لأنفسنا ..
- ولكن ... ليس بهذه الطريقة .
- وهل ترى الرجال يعانون من ذلك ؟ معظمهم لا يهتم ، ولماذا لا تذهب للبلاجات، لا أحد ينظر الا المرضى والمبصبصين .
- ولكن ... هذا يقلل من احترام المرأة لنفسها.
- لا فائدة ... كل النساء لهن سيقان ونهود ، كلنا يعرف تكوينهن ، طرق اللبس والتزين هى التى تصنع الفرق يا رجل ... لماذا لا تنظر إليهن كشئ جميل ، كزهرة مثلا ، كلوحة جميلة ، كبيت شعر ، كقطعة موسيقية ، ألا تراهن سعداء بالحرية ويفعلن ما يردن .

سكت قليلا ثم قال بهدوء :

- اسمع يا رجل ... هنا نتحدث عن الجنس بصراحة ووضوح بعض الوقت ثم ننسى كل شئ عنه ، عندكم .... في الشرق ، لا تتحدثون عنه مطلقا وتفكرون فيه طوال اليوم

من العربة شاهد النسوة فى المدينة ، أشباح سوداء مكلفتة تتحرك بثقل كالأفيال ، الأرداف الثقيلة تهتز كلما تحركن، الأرطال من الشحوم ترتج ولا تظهر منها سوى تقاسيم وإنبعاجات ودوائر مبهمة تلتصق وتبتعد عن القماش الأسود الذي يلمع فى الشمس الحارقة. لمح اللعين يتلذذ برؤية كل ذلك ، بعينيه رأى نظرات الرجال لا تفارق هذه المنطقة ، تتابعها باهتمام ومثابرة غريبة ، تنجذب إليها بقوة لا مقاومة لها ، يدير كل منهم شريط خياله حول التقاطيع والتقاسيم لا أحد يرى شيئا ، كل شئ مخفى جيدا ، وكل شئ عار مكشوف مرسوم في الرءوس ، منحوت على جدار الذاكرة ، مطبوع في ثنايا الخلايا ، ويقبض كل منهم ببطن يده على كل ما يقدر من التفاح

المحرم ، ولا يدرى أى منهم لماذا كان محرما .

يقضم منه ويلامس به شفتيه ، يذوق حلاوة الحب ، ينهشه الناموس والندم ولا يدرى أى منهم سببا لكل ذلك.

وسمع " رايت " يهمس لنفسه :

لكن الطبيعة تنتصر دائما.....

ثم تابع متسائلا ، غير منتظر لأي أجابة :

- أليس كذلك ... يا رجل ؟

***

مع هدهدة العربة فوق مطبات الشوارع وجد نفسه جالسا كالطفل بجانبه ، السائق لا يكف عن التلوى لتفادى المارة والحفر والبرك التي تسد الشوارع ، عاد الى القارب الصغير الذى كان يقفز بهما فوق أمواج المحيط بسرعة بدت له جنونية ، شعور الخوف والضياع يعود فيتملكه ، كان القارب يدور حول التمثال أمام جزيرة الوحوش و"رايت " يشرح له بكل فخر معالم المدينة وأسماء ناطحات السحاب ، يتذكر الرعب الذي تولاه أمام هذه الأشياء .. كان يوما دافئا ، تداعب فيه حبات المياه عيون الناظرين وهى غارقة فى أشعة الشمس ، على البعد أمامه ، امتد المحيط وعانق سحابة بيضاء تشكلت على هيئة امرأة ، كانت جفونها مغلقة حالمة مسترخية ، على شفتيها بسمة هانئة ، يومها تذكر شواطئ بور سعيد التي عرفها في طفولته ، أيام كان يحلم بالسير فوق رأسه على الجانب الآخر من الكرة الأرضية ، أيام قرر ترك كل شئ والسير حتى نهاية الكرة الأرضية والقفز منها الى الفضاء الخارجي ، كان لا بد سيقع فى أحضان كوكب آخر ، يومها نظر اليه التمثال بسخرية وسأله

- ماذا تفعل في أرض الأحرار أيها العبد ؟

ثار حانقا ، رفض تسلق التمثال معه ، شعر أنه لا بد أن يدافع عن نفسه ، أن يقول شيئا ، قال متسائلا :

- هذا التمثال لا يعنى لدى أى شئ ، أى حرية لشعب يعبد المادة والدولار ؟ لبلد

يقمع ثورة الشعوب ؟ !تمثالكم زائف مخادع ككل النساء .

بهت " رايت " أمام كلماته ، قال بهدوء :

- ولكنك لم تفهم معنى الحرية يا رجل ... الحرية هي أن يتخلص الانسان من مخاوفه ، أن يعيش حياته الانسانية كإنسان ، كما يعيش الكلب حياته ككلب .

كانت عربتهم قد توقفت بجانب حافلة مكتظة بالركاب ، زحفت الحافلة قليلا على بطنها حتى ساوت بابها الخلفى بمكان جلوسهما ، رأى نظرات الرعب والقلق ترتسم فوق وجه " رايت " والأجساد المعلقة بالباب والممتدة مترا خارج الحافلة تكاد تلامس العربة ، عشرات الوجوه تتفرسهم من خلال الزجاج المحكم الاغلاق حتى لا تتسلل الحرارة القاتلة وتفسد رطوبة التكييف .

حين ابتعدت العربة سأله :

- هل تذكر حديثنا عن الحرية في " نيويورك " أمام التمثال ؟

صمت .. سمعه يتابع حديثه بإصرار :

- \الحرية أيضا أن يهرب الانسان من الحرية التي تعنى المسئولية

تابعت نظراته الأكوام البشرية المضغوطة في الحافلة وقال حالما :

- هل تظن أن الكلب يرضى أن يعيش كالانسان ؟

حين اقتربت العربة من برج الجزيرة شعر بدقات قلبه تتسارع ، تذكر تجارب "بافلوف " وهو يلاحق حبات العرق المتسارعة على جبينه ، يلعن نفسه آلاف المرات لأنه يتبعه ، لأنه يستمع اليه ، ويعجب لنفسه لأنه دعاه لزيارة معالم القاهرة بعد أن قرر بينه وبين نفسه أن يهرب منه .. أقسم لنفسه ووعدها أنه سيهرب منه ، لكنه بحث عنه ، حين وجده وجدها واسترجع عالمها ، إنه جزء من عالمها وكيف يتركه ولو كان يعذبه ؟ !!أمام مصعد البرج تغير لونه ، زاغت عيناه تلعثم فكف عن الكلام موارياً ضعفه ، سبقه بخطوات ليؤكد له أنه سيصعد معه ، تعود إليه كلماته وهو يصيح موبخا أمام مصعد " الامبير ستيت : "

- لقد وعدت يا رجل ... ألا تخجل من نفسك ؟ !ستصعد معى ، كف

عن تصرفات الأطفال .

يتذكر أن عنقه قد التوى وهو يحاول أن يصل بنظره الى أقصى علوها ، بجانب السحاب ، ركبه الخوف ، خوف حقيقي أخل بوظائف أعضائه ، لم يعد يرى شيئا أمامه ، أنتقلت رأسه مترا بعيدا عن جسده ، استند للحائط غير متأكد أن ساقيه مازالتا تحملانه ، في دورة المياه أفرغ كل ما بجوفه ، جمع شجاعته محاولاً جاهداً أن يخفى قلقه ، أن يتناسى مكان وجوده ، علو ارتفاعه ، أن يتظاهر بالابتسام ، يراقب الكبار والصغار حوله يمرحون فى نشوة ولذة طفولية ، يخجل من نفسه قائلا

- ألا تملك شجاعة الصبية الذين يجرون دون خوف ؟ ! ويبقى السؤال يتردد :
- ماذا لو وقعت ؟ !

يُطمئن نفسه ، يقول لها إنه فى بلد لا تقع فيه العمارات ، ولكنه ظل يتحرك ببطء، يراقب الأرض تحت قدميه قبل أن يخطو ، رأى نفسه طائرا مندفعا فى الهواء وهو يسقط من أعلى الناطحة ، على الأرض تستقبله المادة الصلبة استقبالا حميما ، تمزقه العربات ، تفرم لحمه وتدشدش عظامه وتنهى وجوده ، تنهى آلامه . لكنه كان دائما في الحياة ينظر اليه ناقما متسائلا " : متى ينهى زيارته ؟ ... متى ينتهى عذابي : يراه يلحظ عرق الهلع يلتصق كنتيف الثلج فوق جبهته ، يسخر منه ضاحكا ويقول :

- يا رجل ... الانسان صعد فوق سطح القمر وأنت تموت فزعا فوق سطح ناطحة سحاب !!

من فوق ، حين جرؤ على النظر ، رأى الشمس تبرق فوق سطح المحيط ؛ أشعتها تحول مياهه الى حبات رمال ذهبية ، القوارب قرب الشاطئ ارتمت على الرمال كجمال نافقة ، السفن العملاقة على البعد تبدو كلعب أطفال ، الخلق والعربات تحته تتحرك في الشوارع . حركة منتظمة كأنها الرسوم المتحركة ، قزمة ، هينة التحطيم ، سحابة منخفضة تمر تحته عابرة السماء الزرقاء الصافية وتخترق برجا غير بعيد فيختفى لحظات من الوجود ، صيحات الاعجاب والاستحسان حوله ، صوت طفلة يصيح :

- كأننا في الطائرة ... كأننا في الطائرة .

كانت الوحوش منتصبة أمامه تستعد للقتال ، اعتراه دوار العلو ، رأى نفسه حبة رمل تطير وسط عاصفة هوجاء ، قطرة مياه تبتلعها أمواج المحيط ، قال متغلبا على خوفه :

- من المجنون الذى فكر فى إقامة هذه الوحوش ؟

حين هبطا كان يلعن العلم الذي يذهب بالانسان الى جنون العظمة ، كان يود أن يسأله :" الى أين يريد الانسان بالارتفاع ؟ " ويسأله : "إلى أين يريد الانسان الذهاب ؟ " ولكنه لم يسال تفاديا لسخريته ، اكتفى بالضياع والهوان أمام الحضارة التى أتى يبحث عن علمها ويهرب منها في نفس الوقت ...

وحين هبط الليل على المدينة واختفت الشمس ببطء تاركة في ذيلها بعض الحمرة القاتمة وسط السماء الزرقاء ، في العربة التي تذهب بهما بعيدا أدرك مدى صغره أمام الكون ، حين ساد الظلام بدت المدينة على البعد كملايين المكعبات المضاءة فى أشكال هندسية دقيقة منتظمة ، يتأمل الناطحة ولا يصدق أنه كان هناك ، فوق ، يجاور السحاب ، بل يعلو عليها. وسط السواد الرمادى مرت سحابة كثيفة بين برجين متقاربين فاختفى نصفهما من الوجود، أمام العيون بدت الأدوار العليا معلقة في الهواء ، رعشة باردة تهز جسده ، ضحك متعجبا مستنكرا وقال دون أن يدرى ودون أن يفكر فيما يقول :

- وكيف - بحق السماء - يتحكمون في كل ذلك ؟

وبتلقائيته المعهودة سخر منه " رايت " مجيبا :

- يا رجل ... ألم تر مدينة من قبل ؟ !!نحن على أبواب القرن الواحد بعد العشرين ونقترب من كوكب مارس وأنت هنا كالفلاح المكسيكي تتعجب لتوافه الأشياء ... ألن تفارق سذاجتك أبداً ؟ !

ثم قال غير مصدق :

- ولكنى أفهم الفلاح المكسيكى ولا أفهمك ، أنت الحاصل على دكتوراه في العلوم الاقتصادية ، كيف تتهرب من ثمار العلم ؟ كيف تتجنب نتائجه ؟

وندم كعادته علـى أنـه تكلـم ، ازدرد مهانتـه ، بلـع صـمته ، زاغـت عينـاه وسـط ملايين الأضواء التي تصدر من العربات والشوارع واليافطـات والاعلانـات ، المدينـة العملاقة أمامه ، البحر غير المنتهى خلفه ، تختـرق العربـة شـوارع وكبـارى طويلـة ، الصـداع يتسـرب بـبطء ويحتـل رأسـه ، أربـع سـنوات ولـم يتغيـر ، يشـعر بالإرهـاق والضيق يقبض على نفسه ، يـود مغـادرة المدينـة بسـرعة ، كـل شـئ يبـدو كسـيمفونية غاية التعقيد طالما سمعها ولم يفكر أبدا فى حل طلاسمها وفهـم تركيباتهـا ، حنـت نفسـه لسماع صوت الناى يداعب أذنيه مع نسمة رقيقة من الهـواء تهـز أهدابـه وهـو يسـتيقظ من قيلولة يوم حار ، ليجد نفسه متمددا في ظل نخلة ، هفت نفسـه لكـوب شـاى يحتسـيه على المصطبة المبنية من الطوب النيئ في بيتهم الريفى ، البيت الذى لا يرتفع إلا عـدة أمتار عن سطح الأرض الأمتار الكافية لإيواء أفراد الأسرة والبقرة والكلب والحمـار ، كـوب مـاء مـن الطرمبـة تشـعره بقلـب الأرض ونبضـها .. حـن لاحساسـاته الغريزيـة البدائية حين كان يشـلح جلبابـه ويلمـس بفخذيـه العـاريتين بطـن حمـاره ، يتعـذب قلـيلا والحصى تدخل بطن قدمه وهـو يجـرى حافيـا علـى الأرض المتربـة المعطنـة المليئـة بالجلة ، البيت المبنى بالطوب الأحمر مشبعا برائحـة البقـرة والحمـار خوارهـا ونهاقـه يختلطان طوال اليوم مع قن الدجاج ، نباح الكلب يختلط مع صياح الصغار وضـحكات الكبار ، الأبخرة تصارع هباب الكانون فى احتلال الهواء ، الوادي منبسـط أمامـه دون أسرار يمد ببصره فيرى كل شئ ، أعلى الموجودات في عالمه كانت نخلة منسـى عنـد مدخل القرية ، كان يعرفها جيداً ويتسلقها بمهارة وخفـة كـان يعـرف كـل شـيء ، يفهـم كل شئ .. ينام الليل قرير العين ، هانيء البال ، يجد عند أبيه الاجابة على كـل سـؤال ، عند أمه كل الحنان والدفـء .

ثلاثون عاما من التعليم ليدرك مدى جهله وضعفه!!

آلاف الأميال ليتعرض لسخرية هذا الأمريكي .. !!

متى تركوا الوادى ؟ ... ولماذا ذهبوا للمدينة ؟

وعندما خرجت العربة من المدينة المرعبة وأنطلقت تطير فوق الطريق

السريع سمع " رايت " يكلم نفسه هامسا متسائلا :

- هناك شئ ما في تركيبتك ، شئ ما لا أستطيع إدراكه .

سأله :

- هل تتحدث عنى ؟

قال ضاحكا رغما عنه :

- بالطبع يا رجل ... أنت حالة فريدة لم تمر علىّ ، وفهمها يستعصى على عقليتي العلمية التى تشقى إن لم تجد جوابا لكل شئ

-أنا ... أنا حالة فريدة ؟

- يا رجل ... لو كنت من أنصار الخضرة والطبيعة أو الهيبيين ورافضي الحضارة والعلم ومطالبى العودة للحياة البدائية لفهمتك ووافقتك ، لكنك تبحث عن العلم وتهرب منه ، تبغى التقدم وتنتقده ، تحشو رأسك بأحدث النظريات العلمية وتنظر كالطفل لتطبيقاتها ، وصلت لقمة العلم وأفكارك عن الحياة والعلاقات الانسانية تعود للعصور الوسطى ، كأنك تريد العلم للدراسة فقط ، لنيل الشهادة ، وتتحاشى تطبيق أى شئ مما تعلمته على نفسك ، على شخصيتك ، في حياتك .
- ماذا تقصد ؟ !
- يا رجل ... لقد نلت الدكتوراه ومازلت بدائيا .
- بدائي ؟ !!
- هذه هي الكلمة ... أنت منقسم على نفسك ، بك كل التعقيدات و التناقضات التي يمكن أن يتحملها كائن بشرى ، أنت عبقرى على الورق وجاهل في الحياة .. ثورى تقدمى فى آرائك السياسية ، ورجعى متعفن في آرائك عن المرأة والمجتمع .... تصوم رمضان ولا تأكل لحم الخنزير ... وتعيش معها سنوات بلا زواج ، تقول إنك تحبها وترفض الزواج منها تقول إن شرب الخمر حرام وتشربها .. تفعل كل شئ وتندم بعدها .. تقول الشئ وتفعل عكسه ، بالله ... بحق السماء يا رجل ... كن أمينا مع نفسك ... افهم نفسك ..

كانت العودة تقترب ، كان يظن أنه سيتخلص من هذا اللعين الى الأبد، لم يفهم مطلقا لماذا يهاجمه الأمريكي باستمرار ؟ ولماذا ينقب بمثابرة وإصرار داخل جدار

نفسه المغلقة ؟ ولماذا لا يكف عن فتح الأبواب التي يجاهد أن تبقى مغلقة ؟ وشعر أن اللعين يقترب بعزم وإصرار من النقطة السوداء ، شديدة السواد، التي يفعل كل ما بوسعه ، ويبذل كل جهده أن تبقى سوداء معتمة فلا يصبح لوجودها وجود ، يقترب منها هو ويغيرها بتحليلاته العلمية الثاقبة .

وفرح يوم حذروه منه ...

وأصبحت الحقيقة مغرضة ..

ولكنه سمعه يوما يقول :

- الحقيقة هي الحقيقة ، لا تتجزأ ولا تقبل الانقسام ، اقبلها كما هي أو اتركها ، لكن إياك أن تأخذ منها ما يخدم أغراضك ، وتهرب مما يضايق فكرك المسبق .

قال له وهما ينظران للقاهرة من أعلى البرج

- فضلا عن ملابسك الأوربية الأنيقة ... هل حقا غيرت بعثتك وسنواتك الأربع شيئا من حياتك ؟

رد بثقة غريبة عليه:

- بالطبع ... غيرت كل شئ ، كانت نقلة كبيرة

فحصه " رايت " في دهشة ثم نظر الى القاهرة تحته قائلا :

- أصبحت القاهرة خليطا عجيبا دون طابع أو مذاق .

***

وحين انتهيا من العشاء واختفت عالية في المطبخ تعد القهوة همس "رايت "

- كنت أظن أنك تفضل الشقراوات !!

حمرة الخجل تلون وجهه ، سمعه يسأله :

- ولكنك مازلت تحبها ... أراهن على ذلك بكل ما أملك .

وكيف يخفى الصقيع القائم بينه وبين زوجته عن عينه الثاقبة ؟ كيف وهو قد

شاهد ولمس سعادته الكاملة تطفح فوق وجهه معها ؟

- هذه قصة قديمة .

سخر منه قائلا :

- حقا ؟ !
- لقد نسيت كل شئ.

وبعد أن قدمت عالية القهوة وانصرفت ، أخرج " رايت " من جيبه عدة صور ، مررها له الواحدة وراء الأخرى وهو يتمتع بمراقبة التحويلات التى تحدث فوق وجهه وعلامات الرعب والحيرة تطل من عينيه .

قلب الصور غير مصدق نفسه ، عاد الى الصورة الأولى بسرعة ، نظر اليها جيدا ، دارت الدنيا من حوله هتف صارخا :

- ولكنها هي ... أليست هي ؟!!!

نظر اليه متعجبا لا يفهم شيئا ، حين شعر بخطوات عالية تعود مستفسرة عن سبب صياحه ، سارع بإخفاء الصور قائلا لها أن تتركهم وشأنهم وألا تزعجهم

بعد أن أغلق الباب خلفها وقف كالثور الهائج لا يدرى ماذا يفعل ، ينظر بحيرة وتوثب نحو " رايت " الذى يراقبه ببرود كفأر في معمل تجارب ، يقلب الصور صائحا :

- -أنت تتجسس على ؟

تتصلب أصابعه طالبة القبض على عنقه ، يتقدم نحوه قائلا في غل :

- لكننى كنت أعتقد أنك صديقي .

ويسمعه يرد بكل هدوء :

- لكن الصراع دائم مستمر ... حتى بين الأصدقاء

وهجم عليه محاولا خنقه ، تنساب الصور من بين أصابعه المتخشبة وتنتشر فوق السجادة العجمية السميكة، وقبل أن يضغط شعر بعالية تعود تطرق على الباب،

تركه وهو يزأر كالأسد المجروح ، على ركبتيه ركع يلملم بأصـابعه المرتجفـة صـوره العارية فى أحضان نساء مختلفات في أماكن مختلفة .

نساء مختلفات ولكن كلهن شقراوات

شقراوات وكلهن يشبهنها ..

***

الناموس

" معرفة النفس وتقبلها

هى أفضل سلاح

لمحاربة السلبية والعجز "

" سبيونوزا"

مع تقدم الليل تساقطت الكائنات مستسلمة عدا الناموس ، بقى معه يملأ وحدته ويشغل أرقه ، استيقظ من غفوته باحثا عن الصور التي لملمها ، سخر من نفسه راضيا غفوته السريعة غير المتوقعة ليلة ظهور النتيجة ، أعصابه مشدودة متوترة ، ذهنه وقاد حاد ، ساعات قليلة ويعرف كل شئ ، ساعات ويتحدد مصيره .

يبقى ممددا مقيدا فى مكانه نظراته ترتفع للسقف في الظلام ولا يرى شيئا ، يعرف أن آلافا من الذباب تنام معلقة على السلك الكهربائي المتدلى من السقف وسط الحجرة الممتلئة بالأنفاس . يستمع لطيران الناموس حوله متوقعا قرصاته . الناموس صديق وحدته ومصاص دماءه ، ناخر عروقه ومسمم أوردته.

يعرفه جيدا ، يطير ويطير حوله طوال الليل والنهار يستعرض خفته ورشاقته ، يعرف زنته ورفرفة أجنحته ، غاية فى الدقة والذكاء ، يتلمس الهدوء ويحط ، يتأكد أن درجة حرارة الجسد قد هبطت ، أن المادة قد خمدت ، أن الروح قد رحلت تعيش قدرا ترتاح فى عالم الحقيقة ، العالم المحرم عليه ، المستعصى على عيونه ، ينتظر الرعشة الأولى ، بعدها يأتي الثبات ، عندها ، عندها فقط يغرز بخرطومه الدقيق المسنن الرفيع داخل الجلد ، يفعل كل ذلك بمهارة وخفة ، ينتظر رد الفعل ، إفرازات الغدد ، دقات القلب ، توتر الأعصاب ، أجهزته الحساسة ترصد كل شئ ، عندما تفرغ شاشات راداره من الممنوعات ، يشرع في امتصاص الدماء .

ينتظر ككل ليلة جسدها الهلامي العديم الوزن ، تدور حوله محتارة أين تحط ، يعرف أنها تنظر اليه بعينيها ، نقطتا حبر على ورقة بيضاء ، تتساءل إن كان قد استسلم للنوم أم أنه مازال يعيش أحلامه ، ينتظرها ، أين ستهبط هذه المرة ؟ ماذا ستختار ؟ ساق .. ذراع .. أنف ، أو حتى جفن عين ؟ !

يتعجب ويتساءل عن سبب إصرارها على مص دمائه ؟ يتمسكن طالبا منها الرحمة والراحة ، لا تستجيب له ، تقول إن دماءه طعامها ، لا ذنب لها في ذلك شيئا ، وهو ... ألم يأكل البقرة والخروف والنعجة ؟ وهل ترحّم على الدجاجة التى كانت تقفز أمتارا بعد أن قطعت أمه رأسها بالسكين! ؟ والسمكة المسكينة التي أخرجها من الماء وكانت لا تزال تبتسم !!

يزيحها برفق ، يعرف كنهها ، نقطة دموية حمراء حولها أجنحة هلامية شفافة

وأذرع وسيقان عديدة رهيفة ، يتساءل إن كان هناك لها عقل ، عقل يربط بين كل هذه الأطراف ويوجهها

يسحب الغطاء القطنى الخفيف على جسده ووجهه ، يفعل ذلك كل ليلة حتى يغرق فى عرقه ، ثم يلقى الغطاء بعيدا لاعنا كل شئ .

تمر كالصاروخ أمام وجهه غير عابئة ، يشعر بها تهبط على السرير المجاور ، هل تمص دماء مدحت أم بهاء ؟ وكيف صعد الانسان حقا الى القمر وبقى هو مختبئا كالفأر خوفا من لدغات الناموس ؟ ولكن الفأر اكثر حرية منه ؛ إنه لم يسمع أبدا بفأر مصاب بالأرق مثله ، ولماذا لا ينام كغيره من البشر ؟ لعنة الله على النتيجة والبعثة والزواج من عالية ، لا بد أن يوقف كل شئ فى رأسه وإلا جن ، النوم أو الجنون .

يبدأ العد من واحد الى ألف كما قالوا له أن يفعل ، يتحاشى الأرقام التي لها علاقة بأى شئ ، يستدعى النوم ليريحه من كل هذا العذاب ، يشد الغطاء على جسده ورأسه حتى لا يفكر في الناموس مرة أخرى ، المائة الأولى وهو يتنفس الهواء المكتوم الملبد بالرطوبة واللزوجة المختلط بالعرق الذى يملأ ملابسه الداخلية القطنية الخفيفة ، من خلال الغطاء الرقيق شعر بوخزتها الحارقة فوق جبهته ، نيران اللسعة خبيثة مؤلمة ، يلقى بالغطاء مستسلما ، يجب أن يعترف أنه أذكى مما يظن ، لا فرار منه ، هو فى كل مكان ، يجيد الكر والفر ساخرا منه وهو راقد في المكان الضيق المحدود المخصص له عاجزا عن المقاومة .

فكر في المبيد ، الرشاش ، سنوات وهو يحاول إقناعهم برش المبيد لكنهم يفضلون قرصات الناموس على رائحة المبيد ، يقترح عليهم الرش مع ترك النوافذ مفتوحة فقالوا إن فتح النوافذ يجذب اللصوص ووجع الدماغ ، سنوات وهم يلقون جثثهم كالبهائم يستسلمون للقرصات

يشعر بالابرة مرة أخرى تنغرز فى ذراعه اليسرى ، تنطلق يده اليمني كالصاروخ وتسد طريق الهروب ، يشعر بكونها الرقيق الهش الهلامى محطما في باطن يده آثار دماء ساخنة فوق ذراعه ، رعشة تعتريه لملامسة الدماء ، التقذذ يحل محل الألم .

يجرى الى دورة المياه ، حين يضئ النور ينتظر لحظات حتى تختفى عشرات الصراصير في البلاعة ، حين يدخل يرى بعضا منها معلقا في السقف وعلى الحوائط ينظرون إليه متسائلين عن سبب استيقاظه يهوشهم حتى يخافوا أو يختفوا ، يسخرون منه ولا يتحركون ، يتناسى وجودهم ، يمرر الماء على يده وذراعه ، يتحاشى النظر الى الدماء ، يكثر من الرغوة مكان الحادث .

فوق الحوض نظر الى المرأة التى تعكس صورته ، عينان متورمتان حمراوان، جفونه منتفخة ، أنفه مفلطح ازدادت فتحتاه اتساعا بحثا عن الهواء ، خدوده مجعدة مجهده ، دوائر قلق وأكياس وجيوب تلتف حول العينين ولكنه ذاهب الى الجنون ... لا محالة

ومتى يكف عن الجبن وينظر لدمائه ؟ ألا يستحق العذاب الذي يعيشه لخنوعه ورعونته ؟ هو الذي يريد أن يكون حرا !! أى حرية وهو لا يتقبل الدماء التى تجرى في عروقه ؟ ! أى حرية وهو يتمنى أن يكون قد خلق من النور والنار ، أتى مع الرياح ولم يخرج من البحر ؟ !

ألم يقل له " رايت " أمام التمثال إنه بدون دماء ... لاحرية!!

أى دماء هو مستعد أن يبذلها ؟ !

ألم يعلمه ألا يهتم بآراء الآخرين وينصرف الى العمل ، ألم يفهمه أن الحرية فى الحركة والاختيار والعمل ؟ وماذا ينتظر إذاً ؟

يعود للحجرة وفى يده المبيد ، يضغط على الرشاش بقوة وتصميم ، من العلبة الصفراء يخرج بعض الهواء المضغوط يتبعه السائل النافذ الرائحة ، يرفع برأس العلبة الى أعلى ويوجه السائل المنطلق ، الذي سرعان ما يتحول الى غاز ، فى جميع الاتجاهات ، يتابع بنظراته خيوط الغاز تنطلق الى أعلى ، يخف غله ويشعر بالراحة ، يسمع زناتها وهي تحاول الهروب ضاربة بأجنحتها فى الهواء ، الباب والشباك محكما الغلق ، الذباب المعلق على السلك الكهربائي يستيقظ ويتهاوى على الأرض دائرا حول نفسه وسرعان ما يموت ، يسمع بهاء يصرخ :

- هنفطس ... كفاية يا عادل

يستيقظ مدحت على الرائحة ، يكح قائلا:

- لا تتعب نفسك يا عادل ... الناموس لا يموت

يجرى هانى خارج الحجرة معترضا :

النوم ممنوع في بيت المجانين هذا

وفى الطرقة يسمع والده قادما يقول بذل :

يا ابنى ... ما أحنا عايشين كويس ومستحملين الناموس .

***

استلقى على الكنبة الاسطنبولى العريضة التي تحتل حجرة المعيشة ، الصداع يتملكه ورأسه ككتلة حديدية صلبة لا يستطيع حملها ، كلمة هاني ترن فى أذنه وتؤلمه، أصبح يسمعها مرارا ، قالوا له إن كثرة العلم والتفكير تذهب بالعقل ، وأن معظم أساتذة الجامعة مجانين ... هل حقا سيصبح أستاذا في الجامعة ؟ !

زجاج النافذة أمامه مفتوح على مصراعيه ، الشيش الخشبي الأخضر مغلق بإحكام لصد اللصوص ، القطط تجوب الشارع وتعبث بالقمامة وتموء وتصرخ صراخاً شبقياً غريباً كبكاء الأطفال ، يعرف أن شجرة جرداء تقف على الرصيف أمام الشباك ، جذعها مازال قويا ممتدا فى الأرض الصحراوية ، أوراقها سقطت منذ سنوات كغيرها من أشجار المدينة ، بعدها امتنعت الأشجار عن الإيراق ، بجانب الشجرة ، على الرصيف المهدم ، المكسرة بلاطاته ، الملئ بالأتربة والقاذورات وفضلات المنازل تنام عربة ملاكي مربعة صغيرة ، قديمة كئيبة كحلية اللون ، تحت العربة يسمع ككل ليلة مناورات القطط الماجنة الداعرة ، هكذا في الشارع ..

القطط تفعلها في الشارع بينما يهجم شباب الضاحية على الملعب الصغير بالآلاف يتسلقون الحوائط والأشجار لرؤية الفريق النسائي التشيكي الذي يلعب بالشورت كرة اليد ، ليلتها سرت الهمسة في الضاحية بأسرع من البخار المسموم الذى تقذفه المصانع في سماء المدينة

وتحت الجسر سمع أن الكلب لم يهبط من على ظهر الكلبة رغم كثرة الطوب

الذى ألقى على ظهره ورأسه ، يقولون إنه كان يقبض عليها بقوة غريبة غير عابئ بالأنظار الموجهة إليه ، ساخرا من الملايين التي لا تستطيع الزواج قبل الخامسة والثلاثين وحوادث الاغتصاب التي انتشرت في الشارع والأتوبيس وحالات الإغماء الجماعية التي لا علاقة لها بالسموم المحلقة فوق سماء المدينة .

وكم هي غريبة نواميس الطبيعة.

وكم هو غريب حقا هذا الانسان

***

وفى العاشرة صباحا فزع من نومه على صوت التليفون يدق جانبه فى غرفة المعيشة حين رفع سماعة التليفون وصله صوت عالية تسابق كلماتها وتصيح :

مبروك يا عادل ... ألف مبروك ... طلعت الأول على الدفعة ... امتياز في معظم المواد .

وحين أفاق تماما سمعها تقول :

- ماما لن تستطيع رفض أستاذ جامعى ولو بدون شقة .

وسمعها تقول :

-من الآن سأناديك بالدكتور عادل ... يا دكتور عادل ... يا دكتور ...

***

حين وقف أمام الجوهرى قال منتحرا :

- لا أريد السفر ... لا أريد البعثة .... سأحضر الدكتوراه في مصر

بهت أستاذه ، رد عليه بثقة :

- مستحيل ... هل أنت مجنون ؟

تشجع ، نظر فى عينيه بثبات وقال :

- لا أريد السفر للغرب ، فى مصر أساتذة أجلاء .

لم يصدق الجوهرى أذنيه ، هاج صائحا :

- غريب أمرك ... هذه فرصة العمر .

لقد فكرت فى كل شئ.

- كفى مزاحا ... أنت أفضل طالب هذا العام، لقد أعددت لك كل شئ سيشرف على رسالتك مستر " رايت " بنفسه.

ارتعب أمامه عند سماع الاسم ، لم يلحظ الجوهري الرعشة التي مرت بجسده ، وتابع قائلا :

- لقد تحدثت بنفسى تليفونيا الى سكرتيرته صباح اليوم ، أنت تعرفها ، هذه الشقراء التى كانت معه فى مؤتمر الشهر الماضي ... ديانا أعتقد اسمها ....

ولم يسمع شيئا آخر .

حين خرج من المكتب كان يطير من الفرحة ، شعر بقوة خارقة تهبط عليه ، تزيل عن كاهله أرق شهر كامل ، تغسله من حرمان سنوات طويلة ، وتعده للحياة ..

في الشوارع سار حالما وهو يقول لنفسه :

- اسمها ديانا .
- اسمها ديانا.